الأخلاق الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ،

فهذه مذكرة (الأخلاق الإسلامية) لفضيلة شيخنا الدكتور فلاح بن إسماعيل مندكار - حفظه الله تعالى - وهي مذكرة كتبها الشيخ على هيئة (متن علمي) يشرحه لطلاب وطالبات كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله ، الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد ،

الأخلاق لغـةً : جمع خُلُق ، والخُلُق:

١ - الطبع والسجية.

يقال: فلان طبعة الصدق والأمانة، كما يقال: فلان سجيته الصدق والأمانة.

٢- الدين والتدين.

قال الله تعالى في وصف نبيه : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤] ، قال ابن عباس ومجاهد: «لعلى دين عظيم»(١).

اصطـلاحـاً :

١ - يطلق على الصفة القائمة بالنفس رسوخاً وثباتاً، حيث يصدر عنها السلوك والمقتضى بسهولة ويسر دون تكلف، وعلى ذلك يستحق الموصوف بها المدح أو الذم، والثواب أو العقاب.

٢ - كما يطلق أيضاً على التمسك بأحكام الشرع وآدابه فعلاً وتركاً.

ومن هذا ما جاء عن ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤] : «سُئلت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ ، قالت : «كان خُلُقه القرآن»(٢) ، ثم يقول رحمه الله : « ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيةً له وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والصفح والحلم وكل خلق جميل»(٣).

ومن هذا ما رواه الإمام مسلم(٤) من حديث النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «**البر: حسن الخلق، والإثم: ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع عليه الناس**»(٥). فالبر يقابل الإثم وهو المعصية.

ومن هذا ما رواه الحاكم وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(٦)، وفي رواية عند الإمام أحمد: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(٧). ومعلوم أن غاية بعثة نبينا ﷺ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٤) .

(٢) رواه الإمام أحمد (٦ / ١٦٣) وصححه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١١٨٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٤).

(٤) كتاب البر والصلة، باب: تفسير البر والإثم.

(٥) المستدرك (٢/ ٦٧٠) وصححه الإمام الألباني في «الصحيحة» (٤٥).

(٦) المسند (٢/ ٣٨١)، وصححه الإمام الألباني في «الصحيحة» (٤٥).

(٧) رواه البخاري في الأدب المفرد.

ومن سبق من النبيين إنما هي تحقيق توحيد الله عز وجل وعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الأخلاق على قسمين:

(أ) فطري جبلي:

يخلق الله تعالى من شاء من عباده على ما شاء، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال عزَّ وجل: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١] ، قال سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠] .

وروى أبو داوود في سننه[١] عن أشج بن عبد القيس قال: «قال رسول الله ﷺ: «**إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»، قال: يا رسول الله أنا أتخلق بهما ، أم الله جبلني عليهما؟ قال: «**بل الله جبلك عليهما**»، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله» ، وفي مسند الإمام أحمد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم أحسنت خَلْقي فأحسن خُلُقي** »[٢].

(ب) مكتسب:

وهو ما يتمرن عليه المرء من الطباع والأخلاق والسجايا بحمل النفس والأعضاء عليها حتى تصير خلقاً لازماً وسجيةً فيه بلا تكلف، روى الخطيب في تاريخه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرى الخير يُعطه، ومن يتقِ الشر يُوقه**»[٣] وقال ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

أي بالتطبيق والترغيب والترهيب لحمل الناس على ذلك، فمن جاهد نفسه واجتهد في تحصيل وتحقيق مكارم الأخلاق، وصدق مع الله وبذل الأسباب الشرعية، وفقه الله تعالى وأيده، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

ومن ذلك ما جاء به الشرع الحنيف من الدعوة للتخلق بالآداب الشرعية، والطاعات والأخلاق العلية

---

(١) وصححه الإمام الألباني في « صحيح سنن أبي داوود » (٥٢٢٥) ، ورواه مسلم وغيره مختصراً.

(٢) وصححه الإمام الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٥٧).

(٣) حسنه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢٣٢٨).

ظاهراً وباطناً، ففي هذا دلالة على إمكان المرء واستطاعته من التخلق والاكتساب، إذ الشرع لا يأمر بما لا يستطاع، فالله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها وما يريد بعباده إلا اليسر جل وعلا، ولكن الأمر يحتاج إلى عزيمة صادقة وهمة عالية، ثم ما يصحب ذلك من العمل الجاد النافع مع الثبات والصبر، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

* موضوع علم الأخلاق الإسلامية:

هو علم يختص بسلوكيات الإنسان الإرادية الاختيارية مما يمكن وصفه بالخير والصلاح، أو بالشر والفساد على مقتضى النصوص الشرعية من كتاب وسنة وقواعد عامة، وأصول معتبرة في الشرع الحنيف، أي على مقتضى الأمر والنهي والفعل والترك، ومن ثم ما يستحقه فاعلها من المدح والثناء والثواب، أو الذم والعقاب، ولا يخفى أن الصفات الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والسلوكيات السامية مما تُدرك بالعقول الصحيحة والفطر السليمة وتستحسنها، رغم التفاوت بينها في الأجناس والثقافات والعادات.

وكذلك الصفات الذميمة والأخلاق الرذيلة، ولا يمنع أن تنعكس بعض الفطر وتتلوث بعض العقول فترى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً؛ لذلك فإن المقياس الصحيح والميزان العدل في الحكم على السلوك والأخلاق بالحسن والقبيح هو الشرع الحنيف، فما أثنى عليه الشرع وحسَّنه فهو الحسن، وما ذمه وقبَّحه فهو القبيح، وكذلك ما جاء به الأمر والحث فهو الحسن، وما جاء به النهي والكراهة فهو القبيح؛ ولذلك قيل: «درء تعارض العقل والنقل» ، « بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح».

ولا يلتفت إلى من جعل العقل هو الحاكم بالحُسن والقُبح وهم المعتزلة، يقول الشهرستاني في كتابه الملل والنحل: «واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع، والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل، واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك» [1]، فالمعتزلة يعتقدون ويتفقون على أن الأفعال يثبت حسنها والثواب عليها أو قبحها والعقاب عليها عقلاً وقبل ورود السمع.

يقول أبو الهذيل (١٣٥ – ٢٣٥): «يجب على المكلف قبل ورود السمع ... أن يعرف الله تعالى بالدليل... وإن قصر في المعرفة استوجب العقوبة أبداً، ويعلم أيضاً حُسن الحَسن وقُبح القبيح، فيجب عليه الإقدام على الحسن كالصدق والعدل، والإعراض عن القبيح كالكذب والفجور».

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: « إن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة ... ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي». ثم نقل عن كثير من الفقهاء: «قبحها ثابت بالعقل،

(١) انظر «الملل والنحل» (١/ ٤٨).

والعقاب متوقف على ورود الشرع»[1]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

*** الغاية من علم الأخلاق:**

من خلال التعريف وموضوع العلم، يتبين أن ثمرته وغايته تنحصر في تعلم الفضائل ومعالي الأخلاق ومعرفتها، ثم التحلي بها والتزامها منهجاً ومسلكاً في الحياة العملية حتى تصير طبعاً وسجيةً، وكذلك تعلم الرذائل وسفاسف الأخلاق ومهابط السلوك ومعرفتها ثم السعي الجاد الحثيث في التخلص منها ومجانبتها في المنهج والسلوك العملي، حتى تصير النفرة من هذه الأمور واستقباحها طبعاً وسجيةً.

فالغاية إذاً: علم ثم عمل، أو قُل: عقيدة وشريعة، والعلم وسيلة للأخلاق، والعمل هو الهدف والغاية والمقصد.

فالإنسان لا يكون فاضلاً بمجرد معرفة أسس وقواعد الفضيلة ولوازمها ومقتضياتها ومكملاتها مما ينبغي أن يكون عليه الفضلاء، ولكن بالتطبيق الجاد والممارسة العملية والثبات والصبر والتحمل لتلك الأسس والقواعد واللوازم والمقتضيات، فمعرفة صفة الحياء مثلاً وما يترتب عليها من الأسس واللوازم السلوكية لا تجعل ذلك العارف حيياً أبداً، كما أن معرفة القيادة للسيارة ومعرفة جميع القواعد الأساسية وضوابطها وشروطها ومعرفة قواعد المرور وغير ذلك، لا يجعل من المرء قائداً حتى يمارس ويتمرن عملياً على ذلك كله، حتى تصير تلك الأسس والقواعد طبعاً وسجيةً.

فالعلم والمعرفة أولاً ثم العمل والممارسة ثانياً، وهو شرط لازم له، من هنا جاءت الشريعة الإسلامية تقرن العمل بالعلم، بل جاءت النصوص على أن العمل جزء لا يتجزأ عن العلم: «الإيمان والعمل الصالح»، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١ - ٢]، وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: ٧٤ - ٧٦]، وقال عزَّ وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٩].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

فالعمل داخل في مسمى الإيمان غير منفك عنه عند أهل الحق كما في تعريفهم للإيمان، والإيمان وحده لا يكفي، وأن يكون في القلب فحسب لا يكفي؛ لذلك كله يتقرر أن علم الأخلاق فيه جانب نظري (وهو الوسيلة)، وجانب عمل تطبيقي (وهو الثمرة)، وكلا الجانبين غاية في الأهمية، حيث إن بلوغ الأهداف وقطف الثمار لا يدرك إلا بسلوك أسهل الطرق وأيسر السبل وأصحها وأسلمها، وهو العلم النافع القائم على الكتاب والسنة على فهم السلف الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

* الحس الأخلاقي:

خلق الله الإنسان فأودع فيه إحساساً وشعوراً داخلياً يدرك به الخير والشر ويميز به بين الفضائل والرذائل، قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٧ - ٩] ، فالنفس البشرية بفطرتها وتكوينها الخَلقي تدرك وتميز بين سبل الفجور وسبل التقوى؛ لذلك حث الشرع على تزكية النفس من دنس الفجور وإثم الرذائل والمساوئ التي تؤول بصاحب النفس إلى أوحال الخيبة والخسران، فكل نفس جبلها الله على هذا التمييز والإدراك، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ١ - ٣].

فأعطاه آلات التمييز الظاهرة المحسوسة، وكذلك جبله وفطره على آلة باطنة يدرك ويميز بها، ثم مكنه من الاختيار والمشيئة ليتحمل المسؤولية الشرعية، ويجازى بعدها على وفق اختياره وكسبه وسلوكه. وكل إنسان يدرك ذلك ويعرفه، كيف لا يعرف سلوكه حقاً كان أم باطلاً، فالأمر معلوم في قرارة كل نفس مهما حاول الإنسان إخفاءه وتبريره، قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥] ، فالإنسان بفطرته يستطيع محاسبة نفسه على ضوء سلوكه وأخلاقه ومقاصده محاسبة دقيقة، ولكن واقع الإنسان أنه يجادل ويبرر ويبحث عن المعاذير، ويدافع عن سلوكه ونفسه حتى عند الخطأ والزلل الواضح، والميزان ذكره النبي ﷺ : «البِرْ : حسن الخُلق، والإثم: ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»(١).

(١) رواه مسلم، وقد تقدم تخريجه (ص: ٢).

ربط الرسول ﷺ بين البصيرة الداخلية والميزان النفسي الذي يحسه الإنسان من داخله وضميره، وبين آثاره المحسوسة في الحياة الاجتماعية، فالإثم ومساوئ الأخلاق للنفس منها موقف (الحس الداخلي)، وله مظاهر اجتماعية (كراهية اطلاع الناس)، وابصة بن معبد جاء إلى رسول الله فقال له: «جئت تسأل عن البر»؟ ، قال : قلت نعم، فقال: « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك»(١).

نص على وجود الحس الأخلاقي أو الضمير الأخلاقي في نفس كل إنسان فطرة وجبلة، فالبر ما يفعله المرء مطمئن القلب ساكن النفس، قرير العين هادئ البال، يقدم فيه بلا تردد ولا اضطراب نفس، والإثم لا يقدم عليه السوي من الناس إلا بتردد وريبة وقلق.

إذاً طمأنينة النفس والقلب حال فعل ما يدل على أنه من البر، وكذا اضطراب النفس والقلب حال الفعل يدل على أنه إثم، إذاً عدم الاضطراب لحال الناس ومعرفتهم واطلاعهم يدل على أنه بر، وكراهية اطلاعهم ومعرفتهم يدل على أنه إثم.

فالبر واجب فعله ، والإثم واجب تركه ، ولكن هناك أمور يلتبس فيها الأمر وهي المشتبهات ، قال ﷺ: «**إن الحلال بَيِّن وإن الحرام بَيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(٢).

فالمشتبهات يجب تركها ومجانبتها فهي إن لم تكن حراماً فهي حوله وفي حماه، ومن تجرأ على الولوج فيها يوشك أن يقع في الحرام لذلك يقول النبي ﷺ : «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»(٣) ، أي ابتعد عن كل ما يسبب القلق والاضطراب فإن من الإثم ما تشعر به بواسطة الحس الأخلاقي الذي في نفسك، فالواجب العمل بما يمليه الحس الأخلاقي لأنه يورث السعادة والطمأنينة لصاحبه، فشتان بين الصادق الآمن المطمئن والكاذب المرتاب القلق.

ومما يدل أيضاً على قدرة المرء على محاسبة نفسه بواسطة حسه الأخلاقي، ويميز به بين الحق والباطل والخير والشر أيضاً قول الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٢٨)، وحسنه الإمام الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٣٤).

(٢) متفق عليه من حديث النعمان بن بشر رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند»، والترمذي في «سننه»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣٣٧٨).

مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤]، يقرأ كتاب نفسه ويراجع سلوكه وأعماله يميز فيها بين الخير والشر، ومن ثم يحكم على نفسه وما يستحقه جزاء فعله وسلوكه حتى أنه يقول كما أخبر جلَّ وعلا : ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

* كيف يزكو الحس الأخلاقي وينمو:

١ - معرفة معالي الأخلاق ودراستها.

٢ - الممارسة العملية لجوانب الخير والفضيلة.

٣- قراءة واستماع المواعظ الدينية ووسائل الترغيب والترهيب.

٤ - اتخاذ القدوة الحسنة وإتقان الاتباع والاقتداء.

٥ - التزام طاعة الله وتقواه وخوفه ورجائه في الجملة.

* مصادر علم الأخلاق:

القرآن والسنة مصدران أمينان معصومان محفوظان، يجد المسلم غايته فيهما في جميع العلوم والفنون الإسلامية الدينية والإنسانية، ففيهما تعريف صادق للإنسان وغرائزه وحاجاته وضرورياته، وفيهما التعريف بما فيه خير الإنسان وصلاحه وسموه في الدنيا والآخرة، وفيهما التعرف بمكارم الأخلاق والحث عليها والترغيب فيها، وفيهما التعريف بسبل الشر والفساد والرذائل والقبائح مع الزجر عنها والتحذير منها، فهما إذاً مصدر السعادة والسمو والفضيلة لكل من نشدها وكان صادقاً.

* قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٩] .

* وقال عزَّ وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

* وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

* وقال عزَّ من قائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦ – ٧].

* وقال جلَّ وعلا: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣].

* وقال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

لذلك يجد المسلم أن القانون والدستور والشرائع الأخلاقية الإسلامية مصدرها الوحي المعصوم المحفوظ من الخالق الحكيم العليم الذي أتقن كل شيء، فهو سبحانه خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو سبحانه يعلم حاجات الجسد وما فيه صلاحه وقوامه، وهو سبحانه يعلم حاجات الروح وما فيه صلاحها وقوامها، وهو سبحانه يعلم ما فيه صلاح المرء مع نفسه وأهله وولده والناس أجمعين، وأمته ومجتمعه ودنياه وأخراه، وهو سبحانه المدرك المحيط لجميع جوانبه الخلقية وحاجاته النفسية والغريزية والعقلية والشهوانية، ويدرك ما يصلح ذلك ويقومه.

وهو سبحانه المدرك والمحيط للأسس والقواعد التي تكفل له التوازن والاعتدال ، بل والتكامل في جميع جوانبه الجسدية والروحية والعقلية على السواء ، لذلك أنزل سبحانه الكتب وأرسل الرسل تبياناً لكل شيء وإصلاحاً للفرد والمجتمع وتحقيقاً للسمو والسعادة في الدنيا والآخرة ، فأنزل قانوناً يكفل لهم السعادة والفضيلة مع الانسجام والتوافق بين الطبيعة الإنسانية والحاجات المادية والغريزية وبين الجوانب العقلية والروحية .

فالوحي إذاً المصدر الوحيد للتشريع الأخلاقي الذي لا إفراط فيه ولا تفريط بجوانب من جوانب الإنسان على الآخر ، فهو نظام يكفل السمو والتكامل للروح والجسد ، وللعقل و القلب على السواء ، وهذا – عني الوحي وأنه المصدر الأصيل – ليس خاصاً بعلم الأخلاق الإسلامية ، بل هو شأن جميع العلوم الدينية من حيث المصادر والتلقي ، وهو القدر المشترك بين جميع العلوم الشرعية .

وفي علم الأخلاق نجد أيضاً في سيرة السلف العطرة مصدراً معيناً نرتوي منه أنواعاً من المعالي والسمو في الجانب الأخلاقي السلوكي، فحياتهم وسيرتهم وأقوالهم وأعمالهم وسلوكهم كان تطبيقاً عملياً لما جاء به

الوحي، وتحقيقاً صادقاً للأخلاق الإسلامية الرفيعة، وبياناً واضحاً لأهمية الأخلاق والحث عليها، ولقد سطر التاريخ روائعهم القولية والسلوكية في ضرب أروع الأمثلة لمعاني الكمال والسمو الإنساني حتى أذهلوا الأمم والشعوب بأقوالهم وأخلاقهم وسلوكهم رضي الله تعالى عنهم.

رجال حلف الزمان ليأتين بمثلهم حنثت يمينك يا زمان فكفري

* قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

* وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

* وقال عزَّ وجل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨ – ٩].

* وقال ﷺ : «**لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقت مثل أُحُد ذهباً ما أدرك مُد أحدهم ولا نصيفه**»(١).

* وقال عليه الصلاة والسلام : «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته** »(٢).

* وقال أيضاً : «**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله**»(٣) .

* وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه...» .

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه من حديث البراء رضي الله عنه .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «من كان مستناً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد، كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد، كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة»[1].

وإذا تقرر هذا فإن من العبث والسفه أن ينشد الإنسان الكمال في الأخلاق والفضائل ومعالي الآداب فيما وضعه البشر، مما يصفه الواصفون بالمدرسة الأخلاقية عند أفلاطون أو أرسطو أو المدرسة الأخلاقية عند فلاسفة اليونان أو غيرهم، أو حتى فلاسفة الإسلام كما يزعمون ويصفون، فضلاً عن فلاسفة أوروبا في العصر الحديث ممن تمرد على دينه وكنيسته، بسبب التطرف الديني والغلو والتعنت والاضطهاد الذي كان من رجال الدين والكهنوت في أديانهم المنحرفة المنسوخة، فكانوا يمارسون – أعني أرباب الكنائس – مع الحكام في زمانهم الاضطهاد للشعوب، حتى وصفوا تلك الحقبة من تاريخهم «بالعصور المظلمة، والقرون الوسطى» ، الأمر الذي أدي بهم إلى الثورة والحروب والخروج عن كل ما هو شرع ودين؛ تمرداً منهم على أرباب الكنيسة ورجال الكهنوت، ثم فصلوا الدين عن حياتهم العامة والخاصة، وعن الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغيره.

وشتان بين دين الله وصراطه المستقيم وبين تحريفات اليهود ورجال الكهنوت الذين حملوا بظلمهم الناس والشعوب على التمرد والانحلال والإلحاد، ولما كانت السعادة والطمأنينة والسمو الوجداني والأخلاقي والسلوكي مطلباً للناس جميعاً، أفراداً وشعوباً يسعون إلى تحقيقها وبلوغها، وضع كثير من الفلاسفة والمنكرين قوانين أخلاقية وأسساً تربوية، زعموها أسباباً للسعادة ورقياً للأفراد والمجتمعات وسمواً للمبادئ والأخلاق، وعلاجاً للأمراض الاجتماعية والسلوكية.

ونظراً لاختلاف الطبائع البشرية وحاجاتهم وغاياتهم، وكذلك اختلاف العلاقات البشرية من مجتمع لآخر، وزمن لآخر تعددت مناهج المفكرين وتباينت آراؤهم واختلفت قواعدهم وأسسهم فجاءت النظريات الوضعية يركز أصحابها على ما في نفوسهم، وتعكس في حقيقتها الحياة الاجتماعية والبيئة التي نما وترعرع فيها، متأثرين في ذلك بمجموع التجارب والأحوال التي مروا بها في مختلف مراحل حياتهم مما كانت سائدة في مجتمعاتهم وعصورهم.

وهذا أمر طبيعي إذ الأصل في نتاج الفكر الإنساني عامة أنه عبارة عن تفاعل الإنسان من مفكر وشاعر وكاتب وأديب، مع تجاربه وبيئته ومجتمعه، ومن ثم مدى تأثير ذلك على انفعالاته الوجدانية وعلاقاته وحاجاته

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥ – ٣٠٦).

ورغباته المختلفة، وهذا كله بلا شك يختلف من بيئة لأخرى، ومن شخص لآخر وإن كانوا في مجتمع واحد وبيئة واحدة وعصر واحد، وإن أكبر دليل على فشل جميع النظريات الوضعية هو تعددها وتضاربها وعظيم التناقض بينها وأنّى لها أن توجد حلاً شاملاً وكاملاً لجميع المشاكل السلوكية والأخلاقية، سواء الفردية منها والجماعية، وهي في غاية من القصور والعجز عن إدراك جميع متطلبات السعادة والسمو الإنساني الفردي منها والجماعي.

ولهذا لم نجد لأي فلسفة أو مدرسة أخلاقية وضعية نجاحاً في واقع المجتمعات البشرية التي وضعت لها وعلى مقتضى ثقافتها وحضارتها، فضلاً عن أن تحقق نجاحاً في المجتمعات الغريبة عنها والمخالفة لها في العادات والتقاليد والثقافات، وكيف لعقل بشري أن يحيط علماً بالنفس البشرية والحاجات الإنسانية، ذات الغرائز والرغبات والتقلبات والتغيرات المتعددة المختلفة، وكيف لمفكر أن يحيط بكل ذلك وهو عن نفسه التي بين جنبيه في غاية من الجهل والغفلة، وقد أخبر المولى تبارك وتعالى بما يزيد الأمر وضوحاً فقال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

فالخلاصة أن الله تبارك وتعالى لم يترك الخلق هملاً، أو اعتماداً على ما ترشدهم إليه عقولهم واجتهاداتهم، وإنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لإرشادهم إلى مكارم الأخلاق وحثهم على اكتسابها والعمل بها وبمقتضاها، ولبيان سفاسف الأمور والأخلاق، وحثهم على اجتنابها والبعد عنها، قال الله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]، فهو الخالق جل وعلا وهو الأعلم بما فيه صلاح خلقه وعباده، فالخالق أدرى بما خلق كما الصانع أدرى بما صنع، وصاحب الدار أدرى بما فيها، ولكن الناس يجحدون ويستعلون وبغيرهم لا يتعظون، فلا قلب يعي ولا هم يلقون السمع وهم يشهدون، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

اعتمدوا على عقولهم وركنوا إليها واستعاضوا بها عن هدى الله ونور الوحي، استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فحاق بهم السوء وغشيتهم الرذيلة في الدنيا والآخرة، ورحم الله القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يقضي عليه اجتهاده

*** أسباب نيل حسن الخلق:**

يتقرر مما سبق أن حسن الخلق هو الاعتدال والتوازن والتوافق في جوانب الإنسان الروحية والمادية، ويتقرر أيضاً أن أصل ذلك ومرجعه هو موافقة الشرع، والوقوف عند الأمر والنهي والترغيب والترهيب.

*** وتتحدد خلاصة ما تقدم في هذه النقاط:**

(١) أن القرآن هو الدستور الأخلاقي النظري، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

(٢) أن السنة النبوية هي المبينة لما في القرآن من الهدى والكمال، وهي التطبيق العملي السلوكي لجميع أمره ونهيه وفعله وتركه، قال الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١] ، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، وقال ﷺ : «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وقد كان القرآن خُلقه ﷺ.

(٣) أن في سيرة سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، زيادة بيان وإيضاح في تطبيق وترجمة القوانين الأخلاقية النظرية، والأسس والقواعد السلوكية إلى واقع عملي.

وأما الأسباب الرئيسة التي بها يتحصل الاعتدال والتوافق والانسجام في جوانب الإنسان فهي:

أ - الوهب الإلٰهي والجود الرباني الكريم بما يتفضل على من شاء من عباده بما شاء من خلق فطري جبلي، فيولد المرء وخلق معه الخُلُق الحسن طبيعة وسجية.

ب - الكسب والاجتهاد بمداومة التزام ومكابدة السلوك السوي والرياضة الشرعية، لحمل النفس على الأعمال والأحوال التي بها ينال حسن الخلق حتى يصير طبعاً وسجية ، فمن أراد التخلق بالعلم فعليه بطلبه وتعلمه ، والبذل ومكابدة النفس فيه حتى يصير طبعاً وسجية، ومن أراد التخلق بالجود فعليه ببذل المال وتكلفه حتى يصير طبعاً فيه وسجية، ومن أراد التخلق بالتواضع فعليه بقهر النفس وطرد الكبر وتكلفه حتى يصير طبعاً وسجية، وهكذا في سائر معالي السلوك وجميل الأخلاق.

وهذا النوع كان وما زال ما يشمر له المشمرون الصادقون ويتنافسون فيه المتنافسون، ويتطلع إليه المهاجرون إلى ربهم ومرضاته، ومحل العناية العظيمة من الرجال المؤمنين في سفرهم إلى مولاهم؛ ليكونوا في مستقر رحمته في الدار الآخرة باتصافهم بالفضائل وتحليهم بالمكارم وسموهم عن أنواع الرذائل في حياتهم الدنيا.

وسبيلهم في هذا الكسب والاجتهاد بالالتزام بما يأتي:

(١) بالالتزام على حمل النفس على مواظبة وتكلف الأعمال الصالحة التي تكون سبيلاً لذلك الخلق الحسن، حتى تزكو النفوس وتطهر من أدران المخالفات وأنواع المعاصي والآثام؛ امتثالاً لوصية مولاهم وهدي مصطفاهم، قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] ، وقال ﷺ : «**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم**».

(٢) بحمل النفس على ضد ما تهواه وتميل إليه، مع تحمل مرارة ذلك والصبر عليه، كما هو الشأن عند العقلاء بالصبر على الدواء المر في علاج الأبدان؛ امتثالاً لوصية باريهم وقول هاديهم: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١] ، وقال ﷺ: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**».

(٣) بالاعتناء بالقدوة الصالحة، ومخالطة أرباب الأخلاق الفاضلة، ومصاحبتهم وملازمتهم والاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم، بدءاً برسول الهدى والرحمة وإخوانه الأنبياء، ثم الصحابة الكرام أولي النهى والأحلام، ثم التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، قال الله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾، وقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ **ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ**﴾ [الزخرف: ٦٧ - ٦٩] ،

وقال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء ....**» [1] ، وقال ﷺ: «**المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه**»[2].

فالحاصل أن مخالطة قرناء الخير والصلاح وأرباب السلوك السوي، وأصحاب الهمم العالية والأخلاق الفاضلة مطلب عظيم في باب الكسب والاجتهاد في نيل محاسن الأخلاق، والأصل في المسلم أن يتخلق بجميع الأخلاق الدينية، بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ثم المجاهدة والمداومة على ذلك مع الاستعانة بمولاه والصبر على أذاه، حتى تصير الطاعات خلقاً له يتلذذ بفعلها ويجد حلاوتها في قلبه ونفسه، ولا يعرف معنى للكراهية والاستثقال عن أمر الله وشرعه.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٣ – ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] .

وقال سبحانه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ﴾ [الصف: ١٠ – ١١] .

وقال عز وجل: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال عز من قائل: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩ – ٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

---

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، و أبو داوود في «سننه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٦٦٥٦).

العلاقة بين الأخلاق وبين العقائد والشرائع الدينية

أولاً - العقائد وعلاقتها بالجانب الأخلاقي:

يتبين لنا مما سبق أن كلمة الخلق تطلق ويراد بها الدين والتدين، ومعلوم أن الدين الإسلامي يتضمن: العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، كما يقال أيضاً: «الإسلام عقيدة وشريعة»، والشريعة يعني بها الجوانب الثلاثة ولا يعني هذا الفصل بين هذه الجوانب، بل هي على اتصال وثيق وارتباط متداخل، وإنما يعني به التوضيح والبيان لما يترتب على كل جانب من الأحكام والتكليف، ومن باب تقسيم العلوم والفنون وتسهيل الفهم والتحصيل، ولقد بين الله سبحانه وتعالى الغاية من خلق الجن والإنس، وهي إفراده بالعبادة والطاعة والخضوع وعدم الإشراك به إذ لا مستحق لذلك سواه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

وقال ﷺ : «**أتدري ما حق الله على العباد؟....أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً....**» [(١)] ، ولقد بين ﷺ الغاية من بعثه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وفي رواية: «صالح الأخلاق»[(٢)]، فالعبادة والتوحيد الذي بعث بها النبي والنبيون قبله هي الدعوة لتحقيق مكارم الأخلاق والفضائل، وبهذا يتبين بوضوح قوة العلاقة بين العقيدة والأخلاق، لذلك جاءت نصوص كثيرة تحكم هذا المعنى وهذه الغاية العظيمة، قال ﷺ : «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**»[(٣)].

وقال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم**»[(٤)]، وقال ﷺ: «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً**»[(٥)] ، ومنه أيضاً ربط الإيمان وحصره في الجوانب الأخلاقية، قال رسول الله ﷺ: «**الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**»[(٦)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) حديث صحيح تقدم تخريجه (ص: ٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وأبو داود في «سننه» من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١٢٣٠).

(٤) رواه الترمذي في «سننه» من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١٢٣٢).

(٥) أخرجه الترمذي في «سننه» من حديث جابر ﷺ، وصححه الإمام الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٩٧).

(٦) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، والحاكم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٣٦).

وقال ﷺ : «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار**»[1]، وقال ﷺ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن..... قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه**»[2].

وقال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إني مسلم: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**»[3]، وفي رواية : «... **وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[4].

وتحقيق التوحيد له أثر عظيم على الجوانب السلوكية الأخلاقية، فإذا حقق المرء توحيد الله وإفراده جل وعلا، فاعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الله تعالى واحد لا شريك له في ربوبيته وأفعاله جميعاً، وأنه عز ذكره واحد في أسمائه وصفاته وكماله وجلاله لا شبيه له ولا ند له، وأنه سبحانه منزه عن كل نقص وعيب، وأنه كذلك تبارك وتعالى واحد في ألوهيته واستحقاق العبادة والخضوع، امتلأ قلبه بمحبته والذل له والانكسار له وحده، والتوجه إليه لعلمه وتيقنه أن الخير بيده ولا حول ولا قوة لأحد إلا به، وأن الرزق والعطاء والمنع والموت والحياة كله بيده.

ويدفعه هذا الإيمان إلى الطمأنينة والسكون لذلك المحبوب العظيم، ومن ثم تراه يعيش حراً لا يخشى سوى الله ولا يخضع ولا يذل لأحد سواه، بل يتحرر من ذل العبودية لغير الله، كما يتحرر من سلطان الأهواء والشهوات ولا يكون أسيراً ولا رهيناً لشيء منها، بل يترفع عن سفاسف الأمور ويصبر عن لقاء الخطوب، لا تزعزعه الحوادث والمصائب.

وهكذا كلما ازداد الإنسان في تحقيق التوحيد، وامتلأ قلبه بحب الله ورسوله كلما ازداد ثباته وتحرره من القيود، فالعبودية الحقة تحرر للإنسان في جميع جوانبه، في عقله وفكره، في وجدانه وقلبه، في حياته وعلاقاته مع غيره.

ثانياً – العبادات وعلاقتها بالجوانب الأخلاقية:

يتبين لنا من حديث الرسول ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، أن من أهم غايات بعثته هو الاهتمام بمكارم الأخلاق ومعاليها، والعناية بتزكية النفوس وتطهيرها والارتقاء بها نحو الكمال البشري.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» والترمذي في «سننه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و البخاري في «الأدب المفرد»، وابن ماجه في «سننه» من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو يعلى من حديث أنس رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٩٨).

(٤) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

من أجل ذلك شرع الله سبحانه وتعالى سبل تحقيق هذه الغاية العظيمة، فشرع العبادات وجعل لها مكانة عالية في شرعه ودينه، فهي أركان الإسلام وعماد الدين القويم، وحكم أنه لا يقبل إيماناً ولا إسلاماً إلا بالتزامها وحفظها؛ لعلمه جل وعلا أنها من أعظم أسباب تهذيب النفوس والسمو بها نحو الكمال والفضيلة، وأنها الحصن المنيع من الوقوع في أوحال الرذيلة والحضيض، فالعبادات ليست طقوساً وأعمالاً تكليفية محضة، ولكنها تحوي أسراراً عظيمة في التأثير الإيجابي على الجانب الخلقي السلوكي في الإنسان.

فالصلاة مثلاً وهي فريضة محكمة وركن متين من أركان الإسلام، وفيصل وفرقان بين المرء وبين الكفر والشرك، وعهد وصلة متينة بين العبد وربه يناجيه ويدعوه ويقف بين يديه المرة بعد المرة في يومه وليلته طيلة حياته، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[العنكبوت: ٤٥].

ومن أعظم وظائفها وآثارها:

تأكيد وتعميق وترسيخ علاقة العبد بربه وتحقيق توحيده وصدق اللجوء إليه، فهو الأكبر والأعظم والأرجى في حصول المأمول ودفع المحظور.

الانتهاء والبعد والمجانبة للفحشاء والمنكر من الأقوال والأفعال التي تهوي بصاحبها إلى السفل والهوان في الدنيا والآخرة، فالصلاة نور في قلب صاحبها تحول بينه وبين سوء العاقبة، وهي المعين على مخالفة النفس والشهوات وأنواع الهوى، مع الصبر والثبات في جنب الله تعالى، لهذا اعتبر الشارع الصلاة عمود الدين وركنه العظيم، وحكم أن بهدمه ينهدم الدين كله.

قال الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ – ٢].

وقال سبحانه: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال عز وجل: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال جل وعلا: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ – ٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه**

شيء؟ ... فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[1] ، وقال ﷺ: «**مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات**»[2].

وكذلك الزكاة التي فرضها الله تعالى حقاً للفقراء والمحتاجين نصيباً مفروضاً في أموال الأغنياء، لها أثر عظيم في تحقيق الطهر وتزكية النفس البشرية والسمو بها.

ومن أهم غاياتها وأهدافها:

١ - خلق روح المواساة بين أبناء المجتمع الواحد وغرس مشاعر الرحمة والرأفة؛ لتوطيد الروح الاجتماعية وتوثيق صلة المسلم بأخيه، وبث روح المحبة والألفة بين الأغنياء والفقراء، وإزالة الآثار السلبية بين من فرقت بينهم الفوارق المادية من طبقية واستغلال وغيره، وإذابة تلك الفوارق وإيجاد المجتمع المترابط المتقارب القوي، التي تسود أفراده روح الأخوة الدينية الصادقة وما يترتب علها من الالتزامات.

٢ - تطهير الروح الإنسانية والنفس البشرية من مواطن الشح والبخل والإقتار، ورذائل الأثرة والأنانية، ومساوئ الاعتزال والانفراد وغيرها من الأمراض الأخلاقية التي جبلت عليها، وينادي بها ويحث عليها داعي النفس والهوى، وتزينها وساوس الشياطين، قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣] ، وقال ﷺ: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»[3].

ولما كان للصدقات عظيم الأثر في سمو النفس وتعميق الروابط الأخوية في المجتمع المسلم، مما له الأثر العظيم على وحدة المجتمع وتماسك طبقاته وتآلف أفراده؛ نجد أن الرسول ﷺ بين أن دائرة الصدقة واسعة، وليست مقصورة على بذل المال الواجب والمستحب، بل تشمل جميع أفعال البر والخير ليسهم الجميع في التزام

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا.. من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم من حديث جابر رضي الله عنه.

هذا الخلق الكريم ليعود عليهم بالطهر والسمو وتزكية النفس، قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]، وقال ﷺ: «**كل معروف صدقة**»(١).

وقال ﷺ: «**كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، قال : تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»(٢)، **وقال** ﷺ : «**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة**»(٣) ، وقال ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**»(٤) ، وقال ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلفى أخاك بوجه طليق**»(٥) .

(ج) وكذلك الصوم لم يشرع لحرمان المسلم من طعامه وشرابه ونكاحه مما أباحه الله تعالى له ومن حاجاته الفطرية الغريزية الطبيعية فحسب؛ بل لما فيها من الحكم العظيمة والغايات الرفيعة التي تسمو بالصائم إلى المقامات العالية، والسلوك الرفيع والفضائل والكمال، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

وإن من أهم هذه الغايات:

١ - خَلْق مَلَكَة التقوى وتنميتها في نفس الصائم؛ لتعينه وتعوده على التخلق بخلق الصبر على الطاعات وعن المعاصي، وذاك هو موطن الفضائل جميعاً وأصل المكرمات في الحياة وبعد الممات؛ لذلك أوصى الله تعالى عباده الأولين منهم والآخرين بتقواه وحث عليها ورغب فيها وحذر من عدمها، والتقوى أيضاً وصية الأنبياء والصالحين من عباد الله لأنفسهم ومن يحبون.

٢ - خَلْق روح المواساة والتراحم بين الأغنياء والفقراء وسائر طبقات المجتمع الواحد، وحمل الناس على

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث جابر ﷺ، ومسلم في «صحيحه» من حديث حذيفة ﷺ.
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) أخرجه الترمذي في «سننه» من حديث أبي ذر ﷺ.
(٤) متفق عليه من حديث عدي بن حاتم ﷺ.
(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث أُبي ﷺ.

البذل والتعاون ومشاركة الفقراء والضعفاء شعورهم وأحاسيسهم لإيجاد الألفة والمحبة والترابط فيما بينهم، والصوم من أعظم الأسباب التي تعين المسلم على التزام الفضائل ومحاسن الأخلاق والسلوك، وعلى مجانبة القبائح والرذائل: قال ﷺ: «....**والصيام جنة؛ فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل إني امرؤ صائم...**» (١)، وقال ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**»(٢)، وقال ﷺ: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(٣) .

(د) وكذلك الحج إلى بيت الله الحرام ليس مجرد سفر، وتكبد للمشاق وآلام الطريق ومتاعب الرحلة، والانقطاع عن الأهل والأولاد ومفارقة المصالح والأوطان، ولكن شرع الحج للبيت العتيق لغايات عظيمة، وآثار جليلة على الجانب السلوكي الأخلاقي للإنسان ومنها:

١- تحقيق العبودية لله تعالى بهجر الأهل والأوطان، والانقطاع عن علائق الدنيا ومشاغلها طاعة لله وامتثالاً لأمره، والدخول في الأنساك لأيام معدودة؛ لتعويد النفس البشرية على التحمل والصبر، وإيثار الآخرة على الدنيا والاتصال بالله تعالى.

٢- تمرين النفس البشرية على الالتزام بمعالي الأخلاق وبذل الفضائل، ومجانبة أنواع من السلوك المعوج والفعل القبيح في مدرسة الحج، رغبة منه في سلامة حجه مما قد ينقضه أو ينقصه من آفات الأخلاق والسلوك، قال الله تعالى: ﴿**ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾ [البقرة: ١٩٧] ، قال ﷺ: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»(٤)، وقال ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»(٥)، والمبرور هو الخالي من جميع أنواع الآثام والمنكرات وقبائح الأقوال والأفعال، والمشفوع بالفضائل ومعالي الأخلاق والأقوال والأعمال.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثالثاً – المعاملات وعلاقتها بالجوانب الأخلاقية:

إن الناظر في الآداب الشرعية والتوجيهات الإسلامية وأحكام البيوع والتعامل بين المسلمين، ليعجب من العناية الفائقة بالجانب الأخلاقي، فما ترك الشرع أمراً ولو دقيقاً له الشأن في الإصلاح وبناء المجتمع الفاضل إلا وبينه وحث عليه ورغب فيه، وما ترك دقيقة مما قد تؤدي إلى الشحناء والتقاطع وسوء المعاشرة، وغرس العداوة وتمزق الشمل وتمزق كيان المجتمع المسلم إلا وحذر منه غاية الحذر، صيانة للمسلمين ورغبة في علو منزلتهم وسمو أخلاقهم وسلوكهم فيما بينهم.

فنجد مثلاً في الجانب الاجتماعي وتوثيق الصلات بين أفراد المجتمع يبدأ الإسلام بأعظم الناس حقاً – أعني الوالدين – فيجعلهما أحق الخلق بحسن الصحبة والعشرة، ويأمر ببرهما وخفض الجناح لهما وذكرهما في حياتهما وبعد مماتهما، ونجد أن الشارع قد قرن الإحسان إليهما بتوحيده جل وعلا؛ لبيان عظيم حقهما وأهميته في المجتمع الإسلامي وصلة أفراده ببعضهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ – ٢٤] .

ثم أمر بصلة الأرحام عامة والإحسان إليهم جميعاً، وحذر غاية الحذر من قطعها، وتوعد القاطع بعقوبات عاجلة وآجلة، قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢ – ٢٣] ، وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قاطع**».

ثم أمر بحسن المعاشرة والصحبة بين الأزواج لتحقيق الرحمة والسكن فيما بينهما، وحذر من ظلم القوي للضعيف وجعل الكمال والخيرية في خير الأزواج والرجال لأهله، وكذلك جعل للأولاد حقوقاً وبراً وحسن صحبة وعشرة وعناية لحفظهم من الضياع والهبوط.

ثم أمر بالإحسان للجيران وإكرامهم، وأمر بالتراحم بين الخلق جميعاً والتعاون فيما بينهم على البر والتقوى، ونصرة الظالم والمظلوم والشفاعة بين الناس، وإصلاح ذات البين والتجاوز عن الزلات وكظم الغيظ، ولين الجانب والرفق والتواضع وخفض الجناح والتناصح وسلامة الصدر، والعفو والإعراض عن الجاهلين واحتمال الأذى، والوفاء بالعهد وإنجاز الوعد وطيب الكلام وطلاقة الوجه والبشاشة ورد السلام وإفشائه، والتزاور وإجابة الدعوة وعيادة المريض وتشييع الجنائز، وغير ذلك من الحقوق والواجبات التي تتجلى فيها مكارم الأخلاق والفضائل بين العباد.

وفي مقابل هذا حرم الغيبة والنميمة وسوء الظن والتجسس والكذب، والتحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر وتتبع العورات ونقل الحديث، وشهادة الزور الغدر والخيانة، وحرم السب والشتم واللعن، والتفاخر والطعن في الأنساب وإظهار الشماتة وغير ذلك من الرذائل التي تقطع الأرحام وتغرس العداوة والشحناء بين الناس؛ صيانة للحياة الاجتماعية، وتوثيقاً للصلة والترابط بين الأفراد.

وفي مجال البيع والشراء والمعاملات التجارية، حرم الربا وغلظ فيه وشدد عقوبته، وحرم أكل أموال الناس بالباطل، وأموال الأيتام والضعفاء خاصة لأنها مظنته، كما حرم الغش والخداع والبيع على البيع والسوم على السوم، ونقض العهود والعقود وإفساد الأموال وتضييعها، وغير ذلك مما شأنه بث روح التباغض والفرقة بين أهل الإسلام، والقضاء على الأخوة الإيمانية فيما بينهم.

هذا ولقد قرر الإسلام أخوة إيمانية بين أهله قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وأمرهم وحثهم على كل ما من شأنه تحقيقها وإشاعة روح الألفة والمحبة والتواصل والتناصح في جميع معاملاتهم، فقرر أن كمال الإيمان في حب المسلم لأخيه ما يحبه لنفسه، وهذا عام في جميع المصالح الدينية والدنيوية، وقرر أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وأمرهم ببذل النصيحة الصادقة لأهل الإسلام، ورغبهم في القناعة والعفاف والاقتصاد وذم الشح والبخل فيما بينهم، وهذه الأصول العامة إضافة إلى التفصيل في الجوانب السلوكية والأخلاقية، فيها الكفاية والضمان والغنية لمن أراد ونشد الحياة الكريمة الفاضلة في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]، وهذه الآية الكريمة يقول أهل العلم فيها: من أجمع الآيات في صفات المؤمنين وأخلاقهم، وجماع صفاتهم وأخلاقهم هي طاعة الله ورسوله، وترك معصية الله ورسوله، فهم أولياء أحباء أصدقاء ليسوا أعداء، كل يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له الشر، لا يخونه ولا يكذب عليه ولا يغشه، يصونه في عرضه وماله، ويحفظه حاضراً وغائباً، يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر – وهي من أبرز الصفات – وينصح له ويحب له مطلق الخير في الدنيا والآخرة.

القواعد الأساسية والنظريات الأخلاقية:

شأن جميع القوانين والنظريات التي يراد تطبيقها واقعاً في حياة الناس، لا بد أن ترتكز أولاً على فكرة الإلزام وتتصف به، بمعنى أن تكون الجهة التي وضعت هذا القانون ملزمة لجميع الأفراد والهيئات الذين يراد تطبيقه عليهم، فالأفراد والجهات أتباع ومؤمنون يلزمون بهذه القوانين إلزاماً يترجم إيمانهم بتلك النظرية، وباستحقاق صفة الإلزام لواضعها ويؤكد إيمانهم واتباعهم لهذه القوانين، وعند فقد أي قانون لهذه الصفة وهذه القاعدة فستبقى نظرية وقوانين علمية لا تتعدى الجانب النظري ولا واقع لها في حياة الناس.

وبذلك فإن النظرية لن تحقق شيئاً من أهدافها؛ لأن النظريات الأخلاقية إنما يراد أن تكون سلوكاً وخلقاً في الأفراد والأتباع، ولن تتحقق هذه القاعدة سلوكاً في حياة الناس إلا إن كانت نابعة عن مصادر إلزامية يطمئن المؤمن بها، وباستحقاق هذه الصفة فيها وعلى قدر هذا الإيمان في نفس المؤمن التابع يكون الاطمئنان لصفة الإلزام لمصدر هذه النظريات الأخلاقية

وبناءً على قاعدة الإلزام في المصدر، تنشأ قاعدة أخرى أساسية ترتكز عليها النظريات الأخلاقية عموماً، وهي الالتزام الناشئ عن إيمان الأفراد والأتباع بتلك القوانين والنظريات التزاماً سلوكياً خلقياً قائم على عظيم اطمئنانهم باستحقاق ذلك المصدر لصفة الإلزام، وتسمى هذه القاعدة : المسؤولية ، فكل فرد أو هيئه مسؤول مسؤولية تامة عن أخلاقهم وسلوكهم وتصرفاتهم حيال تلك القوانين والنظريات التي تلزمهم بأنماط من الخلق والسلوك، والحق أن انعدام هذه المسؤولية وعدم شعور الأتباع بها والعمل بمقتضاها، لا يبقي لفكرة الإلزام قيمة ولا أثر في واقع الناس الخلقي العملي.

ويترتب على الشعور بهذه المسؤولية تحمل الأتباع كامل التبعة المترتبة لموافقته أو مخالفته لتلك القوانين، وعلى هذا فإن الناس على قسمين: قسم ملتزم التزاماً صادقاً بما تمليه عليه القوانين، وقسم يقع في بعض المخالفات إما كلياً أو جزئياً، وهنا لابد للنظرية الأخلاقية أن ترتكز علي قاعدة ثالثة لها أهميتها فيما تقدم، وهي قاعدة الجزاء والثواب والعقاب، فالقانون أو النظرية الأخلاقية لابد لها من رد فعل مناسب يتفق مع مواقف الأفراد في تحقيق مسؤوليتهم والقيام بما يلزمهم به ذلك القانون رغم تفاوتهم واختلافهم في ذلك، فلابد لمصدر القانون والنظرية أن يكون ذا قدرة على إيقاع العقاب وإيصال الثواب، وعلى معاقبة المسيء في أداء مسؤوليته وعلى إثابة المحسن منهم.

والحق أنه لا قيمة للمسؤولية الفردية والتزام الأفراد لما ألزموا به إن لم يكن يتبعه جزاء مناسب مكافئ يعين المحسن في إحسانه، ويردع المسيء ومن تسول له نفسه عن المخالفة وعدم الالتزام، فالحاصل أن

المرتكزات التي تقوم عليها النظريات التي يراد ترجمتها إلى عمل وخلق ويمتثلها الناس في حياتهم وواقعهم تتلخص في:

- القانون والنظرية الإلزامية.
- المسؤولية الفردية والجماعية حيال هذه الإلزامات.
- الجزاء المناسب الموافق للالتزام وعدمه.

هذا وإن الناظر في الشريعة الإسلامية ونظرياتها الأخلاقية، وأسس ومرتكزات تحقيقها وتطبيقها، يدرك بوضوح هذه الأسس والقواعد الثلاث بلا ريب ولا غموض، فالأخلاق الإسلامية تمتاز بمصدرين إلزاميين عظيمين، يطمئن لهما المؤمن غاية الاطمئنان ويبعثان في نفسه السكون والثقة لما جاءا به من إلزامات وأوامر لتقويم السلوك، كيف لا يكون ذلك وهما لا يخضعان لأهواء الناس ورغباتهم وأطماعهم ولا إلى تجاربهم المختلفة المتباينة، ولا تقوم على تسلط طائفة وترفعها على غيرها من بني الإنسان بل إنهما من وحي الله تعالى الخالق لكل شيء، والعالم بما يصلح شؤونهم وأحوالهم، فالإلزام قائم على العلم الخبرة وباعثه الرحمة بالخلق.

- قال الله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].
- وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].
- وقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧].
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].
- وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].
- وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠].
- وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].
- وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
- وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].
- وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- وقال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ [الأحزاب: ٦].
- وقال الله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

وكذلك بينت الشريعة الإسلامية المسؤولية الفردية الشخصية غاية البيان في نصوص الكتاب والسنة:

- وقال الله تعالى: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦].
- وقال تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨ – ٩].
- وقال تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

[الحجر: ٩٢ – ٩٣]

- وقال تعالى: ﴿ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥].
- وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الأحزاب: ١٥].
- وقال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤].
- وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٤].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكذلك الجزاء، فقد جاءت النصوص الكثيرة تميز وتفرق بين أهل الالتزام والوفاء بالعهد والقيام بأمر الله ومكارم الأخلاق وبين من خالفهم:

- قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾ [طه: ٧٤ – ٧٥].
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾ [طه: ١٥].
- وقال تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤].
- وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧].
- وقال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ – ٣٦].
- وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨].

القاعدة الأولى

الإلـــزام

هو إلزام الأفراد بأنواع من السلوك الفردي والاجتماعي، وتحديد مسؤولياتهم وواجباتهم، وحملهم على أدائها لبث روح الفضيلة والعدالة والنظام، والاستقرار في حياة الناس الفردية والاجتماعية وثم سعادتهم في الدنيا.

وجماع هذه القاعدة في الشريعة الإسلامية يتمثل بالأوامر والتوجيهات الربانية العظيمة التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية، التي تلزم الأفراد بامتثالها، وتحدد مسؤولياتهم وواجباتهم وتحثهم وترغبهم على أدائها، وتحذرهم من التفريط بها أو مخالفاتها تحقيقاً للفضيلة والعدالة والاستقرار والطمأنينة والسعادة في الدنيا ومن ثم الفوز والكرامة في الحياة الأخرى.

فالأخلاق الإسلامية وحي من الله تعالى، خالق الإنسان والعالم بحقيقة نفسه ومطالبها وما تحقق تكاملها وسعادتها، مع التوازن والتوافق مع متطلبات المجتمع الذي يعيش فيه، فهي تكفل توازنه وتوافقه مع نفسه ومختلف متطلبات الروح والجسد والعقل والقلب، وكذلك تكفل توازنه وتوافقه مع مجتمعه، فلا تتعارض مصالحه مع مصالح غيره من الناس، وهذه دقائق لا يعرفها إلا اللطيف الخبير، ولا يتنبه لها إلا علام الغيوب المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالإنسان في غاية العجز والقصور عن إدراك ما فيه صلاح نفسه في دنياه فضلاً عن أخراه، فكيف يدرك مصالح غيره من العباد فيضع لهم ما يزعمه لازماً لهم في سعادتهم وحياتهم الخلقية، فالحق أن الوحي المتمثل في القرآن والسنة هو المصدر الأصيل من مصادر الإلزام في النظام الأخلاقي، محفوظ بحفظ الله تعالى يهدي للتي هي أقوم، أمين على مراعاة مصلحة العباد رحمة بهم وتحقيقاً لسعادتهم في الدنيا والآخرة.

- قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

- وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [النساء: ٥٩].
- وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [النساء: ٦٤].
- وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر: ٧].
- وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٥].
- وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والحق أن الاستجابة والالتزام بأمر الله وأمر رسوله فعلاً وتركاً، سبب عظيم من أسباب الحياة الكاملة الفاضلة، ويجد الناظر والمنصف أن الله تعالى قد أوجب على أهل الإيمان وألزمهم بقواعد أخلاقية عامة يطبقونها على أنفسهم وأقرب الناس إليهم؛ لأنها أساس العدالة والقسط بين الناس، وهي من أهم أسباب بث روح الطمأنينة والأمن في نفوس الناس.

والحق أنه لا حياة مع الخوف والظلم والجور في المجتمعات؛ لذلك نجد أن الشرع الحنيف يلزم أتباعه ويحثهم على تحقيقها حتى مع الأعداء والخصوم لعظيم أهميتها في حياة الأمة، قال الله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ﴾ [النساء: ١٣٥].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨].
- وقال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ – ٣].
- وقال تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

*** خاصية الإلزام وشروطه :**

الإسلام دين الله وشرعه سبحانه للخلق عامة لا يختص بأمة من الأمم ولا بعصر من العصور، فهو يتصف بخاصية الشمول والعموم لجميع الناس وإلى قيام الساعة، فالناس جميعاً ملزمون بامتثال ما ألزمهم به الإسلام، وليس لأحد أو طائفة أن تلتزم في وقت دون آخر، أو حالة دون أخرى بحسب أهوائهم ومصالحهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، وقال ﷺ : «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى** ...» الحديث.

والحق أن هذا الشمول والعموم في الالتزام ليس على إطلاقه، بل قد قيده الشارع الحكيم بما يكفل له الاستمرار وإمكانية التطبيق، فالأمر ليس إلزاماً وتعجيزاً وقهراً بقدر ما هو إرشاد وإصلاح لبث روح الفضيلة وإشاعة الأخلاق الفاضلة في حياة الأمة؛ لذلك جعل الشارع لوجوب الإلزام ووقوعه شروطاً:

١ - الاستطاعة الفردية:

لا يلزم الإسلام بشيء إلا بعد دخوله تحت القدرة والاستطاعة الفردية وإمكانية العمل به، قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾ [الطلاق: ٧] ، وفي الحديث: «**كنا إذا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم**»[1] ، فعدم القدرة والاستطاعة مسقطة للإلزام حتى في أركان الإسلام كالحج وغيره، وما لا يدخل تحت إرادة العبد من الخطرات والوساوس وحديث النفس لا يؤاخذ عليه المرء ، ولا تكليف يفوق الطاقة والقدرة ولا تكليف بالمحال، وفي قصة الصحابة في نزول خواتيم سورة البقرة أوضح مثال وبيان.

٢ - دفع الحرج والمشقة في الأعمال:

ترد على النفس البشرية حالات يشق عليها الالتزام بما كان متيسراً لها في غيرها أو يلحقها مشقة وحرج منها في بعض الحالات دون غيرها، والشريعة مبناها على التيسير ورفع الحرج ودفع المشقة رحمة بالعباد وتحقيقاً للاستمرار.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
- وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].
- وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١].
- وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].
- وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].
- وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(١).
- وقال عليه الصلاة والسلام : «**يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا**»(٢).

(١) أخرجه ابن ماجة في «سننه» من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة» (١٦٦٢) .
(٢) متفق عليه من حديث أبي أنس رضي الله عنه.

القاعدة الثانية

المسؤولية

هو شعور الفرد باستعداده الفطري وقدرته على إلزام نفسه بالقواعد السلوكية الأخلاقية، ومن ثم ترجمتها إلى واقع في حياته العملية، فالمسؤولية شعور وإحساس بالقوة والقدرة والاستطاعة من جانب، وإدراك بلازم وواجب أوجبه علينا ربنا وخالقنا من جانب آخر، ثم الخضوع والاستسلام والامتثال العملي رجاء حصول المأمول ونيل الجزاء والثواب منه في الدنيا والآخرة ، ومخافة التعرض للسخط والعقاب منه جل وعلا، والمسؤولية نتيجة حتمية لمبدأ الإلزام ومتفرعة عنه.

فهي مسؤولية دينية أخلاقية تجاه الكتاب والسنة بمقتضى العهد والبيعة الدينية بعد إعلان الشهادتين والإقرار بهما، فشهادة أن لا إله إلا الله تقتضي القيام بالمسؤولية الكاملة تجاه العبودية لله وتحقيق توحيد ألوهيته بمقتضى ربوبيته على الخلق، وشهادة أن محمداً رسول الله تقتضي تحقيق متابعته والاقتداء به والقيام بالأمر والنهي.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] ، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧] ، وقال عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ [المائدة: ١] ، والوفاء بالعقود والعهود قرره الشرع فيما بين العبد وغيره، وشدد عليه غاية الأمر ولا شك أن الوفاء آكد حين يكون العهد والعقد مع الله تعالى ومع رسوله، وفي الحديث: «**المسلمون عند شروطهم**» ، وجاء أيضاً: «**أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**»(١). كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام قوله: «**وما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط**»(٢).

ولقد حذر الشرع من عدم الوفاء، وعدها خيانة وتوعد عليها العقوبة الشديدة، وجعلها من خصال النفاق والكفر بالله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**»(٣).

---

(١) متفق عليه من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خصائص المسؤولية الأخلاقية

أولاً – الشمول والعموم:

فكل مسلم مسؤول لا استثناء لأحد، وكل يحاسب على قدر وفائه بالمسؤوليات.

- قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ – ٩٣].
- وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣ – ١٤].
- وقال سبحانه :﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].
- وقال عليه الصلاة والسلام : «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»(١).
- وقال أيضاً : « **لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عمره فيم أفناه، وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه** »(٢).

ثانياً – الطابع الفردي الشخصي المحض:

فكل فرد يتحمل تبعة مسؤولياته وبمقتضاها ينال الثواب أو العقاب، فلا تحويل في التبعات ولا اشتراك مطلقاً.

- قال الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ ﴾ [الإسراء: ١٣].
- وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١١].
- وقال جلَّ وعلا : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩].

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٦).

- وقال عزَّ وجل: ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ﴾

[الإسراء: ١٥]

- وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾

[الزلزلة: ٧ – ٨].

وهذه الخاصية تبين تمام عدل الرب تبارك وتعالى ورحمته بعباده، ولا تتعارض هذه مع وصول أجور وثواب أعمال غيره إليه، إن كان هو السبب في حصول ذلك الفعل الحسن والعمل الصالح والسلوك القويم منهم، وكذلك الحال في وصول أوزار وعقاب أعمال غيره السيئة المخالفة للأخلاق الإسلامية.

شروط المسؤولية الفردية

وهذه الشروط يجب توافرها في شخص المسؤول وفي العمل المراد أداؤه؛ ليترتب عليه الجزاء والثواب والعقاب، وإن اختل شيء منها يتخلف الجزاء بقدره:

١ - الأهلية:

فالفرد لابد أن تتوفر فيه أهلية الالتزام والتكليف والبلوغ والعقل، فغير العاقل لا يتحمل مسؤولية في الدنيا ولا تبعة يوم القيامة، وأما غير البالغ فقد أعفاه الشرع من المسؤولية والتبعة الأخروية من أعماله السيئة، في حين أنه لم يحرمه ثواب صالح الأعمال، قال النبي ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم**»(١).

٢ - العلم بالحكم الشرعي:

فالجاهل يعذر بجهله في الأحكام الشرعية: في السلوك والأخلاق وسائر التصرفات العملية؛ لذلك أرسل الله الرسل لرفع الجهالة وقطع الاعتذار بالجهل، وكذلك الناسي للحكم الشرعي فإنه يعذر من تبعة الآخرة، وكذلك المخطئ، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، **قال الله تعالى**: « **قد فعلت** »(٢).

٣ - النية والقصد:

لا بد من حضور العقل والإرادة واستجماع الهمة، بعد العلم الشرعي في جميع الأعمال لتحقق المسؤولية الفردية، فالأعمال اللاإرادية لا يتحمل المسلم تبعتها، وكذا ما أُكره عليه من أعمال السوء والشر، قال الله تعالى:

---

(١) أخرجه أبو داوود في «سننه» من حديث علي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داوود» (٤٤٠١).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ ﴾ [المائدة: ٨٩] ، وقال تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ ﴾ [الأحزاب: ٥] ، وقال عزَّ وجل: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال جلَّ وعلا : ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٣].

فالأهلية استعداد فطري ونضوج عقلي، والعلم يعرف به الخير والشر والصلاح والفساد، وبالقصد والإرادة يتوجه المرء إلى أي النجدين أو السبيلين اختياراً وكسباً وعليه تترتب المسؤوليات ويتقرر الثواب والعقاب عن اختيار الفضيلة أو الرذيلة.

القاعدة الثالثة

الجـــزاء

هو ما يجده المرء ويلقاه جزاءً يوافق أعماله وسلوكه: إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر، أمر لا بد منه تقييماً لأداء الناس، يتشوق إليه المؤمنون الطائعون الصابرون، جوائز وهبات يفرحون بها ويسرون على ما كابدوه من مخالفة النفس والهوى طاعةً والتزاماً لأمر الله ورسوله، ويعاني منه الجاحدون المعاندون على ما أطلقوا فيه العنان استجابة لداعي النفس والشيطان.

وأهميته عظيمة جداً حيث إنه الدافع العظيم لحبس النفس على التمسك بالآداب الشرعية، والأخلاق الفاضلة التي ألزم بها، وللثبات على ذلك وتحمل المشاق ومواجهة الصعاب في تحقيق أمر الله ورسوله، ومنع النفس عن مواطن الرذيلة، وتكمن أهميته أيضاً في كونه مظهر عظيم للعدالة الربانية والحكمة الإلهية من عدم المساواة بين المتناقضات والمختلفات.

- قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].
- وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].
- وقال عزَّ وجل: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ولقد أولت الشريعة الإسلامية الجزاء والثواب والعقاب اهتماماً عظيماً وعنايةً فائقةً، ووضحت ذلك غاية الوضوح في نصوص كثيرة جداً، وجعلته على أقسام ومراتب قسمها العلماء بالاستقراء إلى جزاء ذاتي نفسي، وجزاء تشريعي قانوني، وجزاء إلهي رباني، ولا يعني هذا انفصالا بينها وإنما للتوضيح وبيان الأهمية فحسب، وإلا فهي شديدة الاتصال وكلها يصدق عليها أنها جزاء إلهي عادل حكيم.

أولاً - الجزاء الذاتي النفسي:

هو ما يجده المرء في ذاته ونفسه تجاه أعماله وسلوكه، فهو شعور يغمر وجدانه ويملك عليه أحاسيسه، وهو يختلف حسب اختلاف الناس في السلوكيات والأخلاق:

أ - **فالمؤمن** المخبت المطيع الذي حمله الوفاء على التزام مسؤولياته تجاه دينه وربه فتحلى بالأخلاق الفاضلة، والسلوكيات العالية والأدب الرفيع وصبر على ذلك كله وثبت عليه، وإن كان أحياناً يكلفه أنواعاً من العناء والأذى وشيئاً من الحرمان على موازين الناس، فالتزام الصدق في الأقوال قد تكلف صاحبها عقوبات مختلفة، وإيثار الفقراء والمحتاجين والأرامل والضعفاء رغم الخصاصة والحاجة قد يكلفه الجوع وغيره، وأداء الأمانات إلى أهلها رغم الفاقة والحاجة إليها، ومخالفة النفس الأمارة بالسوء عند حصول المقصود وامتناع العقوبة وتحمل مرارة ذلك فترة، وغير ذلك من المكرمات والفضائل تجعل صاحبها يشعر بعلو الهمة، وبالفرح والسرور والسعادة واللذة النفسية الوجدانية وتغمره حتى ينسى معها مرارة الحرمان والأذى.

وأما إذا غلبته نفسه فوقع في مخالفة شرعية فإنه يجد شعوراً بالألم والضيق وعدم الاستقرار والخوف والوجل، ويكبر فيه ذلك حتى يحمله على الندم الصادق والرغبة الأكيدة في تصحيح الخطأ، والعودة إلى مواطن الفضيلة والراحة النفسية والاستقرار الوجداني، قال الله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥ – ١٣٦]، وقال عليه الصلاة والسلام : «**إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن**»(١) . وعن ابن مسعود ﷺ موقوفاً: « **إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا** »(٢).

والحق أن هذا الشعور مع وصفه بأنه ذاتي بمعنى أن موطنه وميدانه ذات الإنسان، إلا أنه يعتبر وهب إلهي ومنحة ربانية كريمة يستحقها من يبذل الأسباب الشرعية في تحصيل وكسب الفضائل ومعالي الأخلاق، فهو بمثابة نور من الله يقذفه في قلب المؤمن يرشده ويهديه ويقومه إذا مالت به ريح الشهوات أو عصفت به أمواج الفتن والمهلكات، أو انحرفت به وساوس الشياطين:

- قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩].
- وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ** ﴾ [التغابن: ١١].
- وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾ [الأنفال: ٢٩].
- وقال تعالى: ﴿ **وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى** ﴾ [مريم: ٧٦].
- وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ** ﴾ [الحديد: ٢٨].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» من حديث أبي أمامة ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه».

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ – ٦٧].

ويمثل هذا الشعور وهذا النور الرباني وهذه المنحة الكريمة عصمة الله تعالى لنبيه يوسف، فأدرك الحق وأبصر الهدى أمام المغريات المادية واللذات الشهوانية الفانية رغم أمن العقوبة الدنيوية وكسب المنافع العاجلة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

ب – **وأما الجاحد** المخالف الذي لم يرفع لعهد الله رأساً ولم يلتزم بما أوجب الله تعالى عليه، وعمل بمقتضى اللذات العاجلة واتبع هواه واستجاب للنفس والشيطان فعاث في الأرض الفساد، وسفك الدم الحرام وأكل أموال الناس بالباطل، وانتهك الأعراض وغير ذلك من أنواع الرذائل والموبقات، فإنه وإن كان في ظاهره السعادة وتحقيق الرغبات وبذل الأموال في الملذات والترف والبذخ، فإنه يعيش حياة لا طمأنينة فيها، بل يعاني أنواعاً من القلق والاضطراب النفسي وعدم السكون، فظاهره الترف وباطنه الشقاء والحرمان وآلام الوجدان والضمير.

- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

- وقال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

فشتان بين من اطمأن قلبه واستقرت نفسه وهدأت سريرته، وقرت عينه بما أوتي واستخلف الله بما فاته من الدنيا فلا يفرح بما أوتي ولا يحزن على ما فاته، وقنع برزقه وكسبه وأجمل في الطلب واطمأن لثواب الله في العاقبة ومآله يوم الدين، فلم يجزع على مستقبله ومصيره، وصبر رابطاً جأشه عند البلاء والشدة والكرب يحمد الله على كل حال، وبين من حزن في قلبه واضطربت نفسه وهلعت سريرته ولم تقر عينه، فتقلب في الحسرات حزناً على ما فات وتفرق همه وتعب في الطلب، وشعر بالجزع والهلع على مستقبله ومصيره ومآله، وكذلك عند البلاء والشدة في حيرة من أمره محجوب القلب عن البصيرة، يشعر بالذل والهوان والوحشة وهوانه على رب الخلق والعباد.

- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ﴾ [الحج: ١٨].

- وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].
- وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠].
- وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣].

ونُقل عن بعض السلف أنه قال: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف» ، وقال غيره: « إنه ليمر بالقلب أوقاتاً أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

ثانياً – الجزاء التشريعي القانوني:

هذا النوع من الجزاء شرعه الإسلام وحده لردع أصحاب الأهواء، وعباد الشهوات من الاسترسال في نيل حظوظهم الدنيئة على حساب أهل الفضل والصلاح أو غيرهم من الناس، فالأفراد في المجتمع لهم حق على القانون والسلطان والتشريع أن يكفل حرياتهم وأمنهم وسلامتهم واطمئنانهم على الأنفس والأعراض والأموال.

لذلك شرع الإسلام هذا النوع من الجزاء لردع من طمست فطرتهم، وانحرفت سلوكياتهم، وساءت أخلاقهم، وأسرتهم شهوتهم، حتى أصبحوا خطراً على أمن المجتمع وسلامته؛ لأنهم يسعون في تحقيق شهواتهم ورغباتهم دون تمييز بين خير وشر، لا تسوؤهم السيئات والمنكرات بسبب ضعف الوازع الداخلي وموت الضمير الأخلاقي فيهم، لا يلتفتون لأهل الخير حين ينصحون، وربما سخروا حين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وربما استخفوا بهم وبأمر الله ورسوله.

ويقسم العلماء هذا الجزاء إلى قسمين:

١ – الحدود الشرعية:

وهي الجزاءات التي حددها الشرع بدقة؛ عقوبةً وجزاءً على جرائم معينة وانتهاكات محدودة كالحرابة، والسرقة، والزنا، والقذف، وشرب الخمر، والردة عن الإسلام.

- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى

ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٣٣ – ٣٤].

- وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [المائدة: ٣٨].

- وقال عزَّ وجل: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

- وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ [النور: ٤].
- وقال عليه الصلاة والسلام : « **خذوا عني، فقد جعل الله لهن سبيلاً: الثيب بالثيب، والبكر بالبكر، الثيب جلد مائة ثم رجم بالحجارة، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة** »(١).
- وقال أيضاً : «**من بدل دينه فاقتلوه** »(٢) .

وأجمع الصحابة في حد شارب الخمر، جمعهم عمر ثم استقر الأمر على الثمانين، قال علي ﷺ : «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، فأرى عليه حد الفرية –المفترين–»(٣) ، وقال عبد الرحمن ابن عوف ﷺ: «أحق الحدود ثمانون»(٤)، أي أخف ما جاء تحديده وذكره في القرآن الكريم، فأمضاه الصحابة إجماعاً.

٢ – التعزير:

وهي العقوبات والجزاءات التي لم يحددها الشرع، وإنما ترك تحديدها وتقديرها للحاكم أو من ينوب عنه ليحددها بحسب نوع المخالفة السلوكية وطبيعة المخالف، وظروف المخالفة ومشاعر من وقعت عليه المخالفة وأضرارها، فقد تكون العقوبة مجرد التأنيب والزجر، أو التعذيب، أو السجن، أو الجلد.

والحق أن الإسلام يريد أمة مترحمة قوية تقوم على أسس متينة من الإخاء والمحبة والألفة، أمة تقدس الفضيلة وتحارب الرذيلة والفواحش والجرائم، أمة مطمئنة آمنة في حياتها الاجتماعية، تتمسك بالأخلاق والسلوك السوي بوازع داخلي يقظ حي، يكون كل فرد من أفرادها حارساً للقيم والمبادئ والأخلاق والفضيلة، يقودها ذلك الشعور الداخلي اليقظ، والجزاء الذاتي النفسي نحو الكمال.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه الإمام مالك وغيره، وضعفه الألباني في «الإرواء».
(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» وفيه: «ثمانين» منصوبة بفعل محذوف، أي اجلده ثمانين.

وأما من فقد هذا الشعور وهذا النوع من الإحساس فيردعه الجزاء التشريعي والقانوني، من باب استئصال العضو الفاسد من البدن لئلا يفسده كله، أو من باب علاجه إن أمكن، فالإسلام يحترم ويقدر مشاعر الفرد، وكذلك يحترم ويقدر مشاعر المجتمع ويراعي صلاحه؛ لذلك حرم الاعتداء على الغير وصان الكليات والحقوق العامة، قال عليه الصلاة والسلام: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، فليبلغ الشاهد الغائب**»(١) ، فالقانون الأخلاقي الإسلامي جاء متكاملاً للفرد وما فيه صلاحه وكمال نفسه وسمو خلقه، وللمجتمع وصيانته وكماله وتماسكه.

ثم إن هذه الجزاءات التشريعية لا تقف عند حد الردع والزجر لأصحاب تلك النفوس المريضة، فهي أيضاً كفارات لأصحابها عند التبعة في اليوم الآخر، فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: «**كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال: تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه**»(٢).

ثالثاً – الجزاء الإلٰهي:

يشمل هذا النوع من الجزاء الوعد والوعيد، فالأمر ليس قاصراً على الجزاء الذاتي والجزاء التشريعي في النظرية الأخلاقية الإسلامية، فهما يتعلقان بالحياة الدنيا فحسب، وأما الوعد والوعيد أو الجزاء الإلهي فهو وإن كان له تعلق بالحياة الدنيا كالجزاءين السابقين، فإنه يتجلى ويختص اختصاصاً بيناً بالحياة الأخرى، والجزاء الإلهي هو الزاد الذي يعين المؤمن في طريقه وسبيله للالتزام بالتشريع الأخلاقي والصبر عليه والتحمل فيه؛ إذ هو ثمرة عمله وانتظاره وصبره وجهاده في هذه الدنيا.

فالمؤمن الطائع الذي لبى نداء الله وقام بمسؤولياته والتزاماته، فحقق الإيمان وعمل الصالحات وأصلح سريرته وعلانيته وتحلى بأخلاق القرآن وآداب الشرع وترجم أمر القرآن ونهيه سلوكاً وعملاً في حياته، قد وعده الله سبحانه وتعالى وعداً حسناً وأعد له جزاءً كريماً.

وأما الظالم الفاجر الذي أعرض عن الله واستخف بشرعه، وتولى عن الأمر والنهي ولم يرفع بذلك رأساً، وسقط في مهاوي الرذيلة وأوحال الموبقات واتبع هواه وأطاع شيطانه، فقد توعده الله تعالى بما يكافئ فعله وحاله من العقوبة والمهانة في الحياة الأخرى.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٢) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

وكذلك **المسلم الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً**، يلتزم مكارم الأخلاق وآداب القرآن وحدود الأمر والنهي حيناً، ويسقط أسير الأهواء والشهوات حيناً آخر، قد أعد الله تعالى له وعداً خاصاً يناسب تقلبه، وكذلك وعيداً خاصاً يناسب فجوره ومخالفته.

فالله سبحانه وتعالى حكم عدل لا يظلم العباد شيئاً، ولا يسوي سبحانه بين الأمور والأحوال المختلفة، وهو سبحانه لم يخلق عبثاً ولم يترك هملاً، قاله الله تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال عزَّ وجل: ﴿ **وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال جلَّ وعلا : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

فالوعد زاد ودافع للصبر والثبات والمواصلة والمثابرة على الفضائل، ويمثل جانب الرجاء، والوعيد زاجر ومانع من التقصير والانحراف والفعل القبيح ويمثل جانب الخوف، وبالرجاء والخوف تقوم القلوب وتصلح السرائر والظواهر ويتحقق السمو في الإنسان.

والجزاء الإلهي على قسمين:

١ - الجزاء الإلهي العاجل:

وهو ما يجده المرء من عاجل نصيبه في حياته الدنيا، ويختلف هذا الجزاء حسب اختلاف الناس في السلوك الأخلاقي، ومن حيث الالتزام بفضائل الأعمال، ومعالي الأخلاق والاجتناب للرذائل والأخلاق الدنيئة، وذلك حسب ورود الشرع بالأمر والنهي.

أولاً – الجزاء لأهل التقوى والصلاح والإيمان:

وهذا الجزاء والوهب الإلهي لهذه الصفوة من أهله وخاصته قد يكون معنوياً وروحياً، فيكون غذاء لأرواحهم وطمأنينة لنفوسهم لا يشعر غيرهم بها، ولكنها تترك آثاراً جليلة وبصمات ناصعة على نفوسهم وأرواحهم، وتتمثل في محبة الله تعالى لهم ورضاه عنهم، ومعيته لهم، وهدايته إياهم، وتوليه لهم، ودفاعه عنهم، وأنهم حزبه جل وعلا، **و الله يحب المحسنين والمقسطين والمتقين والتوابين والصابرين والمتوكلين** .

- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].
- وقال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].
- وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥] .
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُنَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] .
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].
- وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].
- وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].
- وقال تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].
- وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ –١٦].
- وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١].
- وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

- وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٤].
- وقال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧] .
- وقال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].
- وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].
- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

وقد يكون الجزاء لهذه الصفوة مادياً محسوساً يظهر في حياتهم وعاجلتهم ويتمثل ذلك بأن يمد الله تعالى ويوسع لهم في أرزاقهم وأولادهم، وبتيسير أمورهم وأحوالهم، وتنجيتهم من المصائب، وحفظهم وحفظ ذرياتهم وأموالهم، وإخراجهم من الفتن والمهلكات، وقد يكون أيضاً بالنصر والتأييد للجماعة المؤمنة الصادقة، واستخلافهم في الأرض والتمكين لهم فيها، والقوة والمنعة والعزة والقيادة والريادة في الحياة الدنيا، مع الأمن والاستقرار والطمأنينة.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].
- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣] .
- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].
- وقال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ – ١٢].
- وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].
- وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].
- وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

- وقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥ – ٦].
- وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤].
- وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف: ٨٠].
- وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢].
- وقال عليه الصلاة والسلام: «... **لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض**»[1] .

ثانياً – الجزاء العاجل لأهل الكفر والفسوق والفجور:

وهؤلاء المجرمون الظالمون قد يكون جزاؤهم معنوياً، يجدون مرارته ومعاناته في نفوسهم وأرواحهم الخبيثة، وتظهر لها بعض الآثار على ظواهرهم وأحوالهم من الذل والخزي والصغار والهلع والخوف والاضطراب وغيره، ويتمثل هذا الجزاء الإلهي في عدم محبته لهم سبحانه وتعالى، وعدم رضاه عنهم وعن سلوكهم وأخلاقهم والتخلي عنهم، وتسليط الشياطين عليهم وإضلالهم وعدم هدايتهم وإزاغة قلوبهم والختم عليها، وغشاوتها بالران والختم على القلوب والأسماع والأبصار، وقسوة القلوب وغير ذلك من أنواع الحرمان والخذلان.

- قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ** ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٣٢] ، ﴿ **وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿ **مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا** ﴾ [النساء: ٣٦] ، ﴿ **خَوَّانًا أَثِيمًا** ﴾ [النساء: ١٠٧] ،وأخبر أنه لا يحب المفسدين والمتكبرين والخائنين والمسرفين .
- وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦].
- وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر: ٧].
- وقال تعالى: ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث حذيفة رضي الله عنه.

- وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].
- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].
- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].
- وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٣].
- وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٨].
- وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].
- وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].
- وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٤].
- وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].
- وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ، ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.
- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥].
- وقال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].
- وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].
- وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾ [المائدة: ١٣] .

وقد يكون جزاؤهم مادياً محسوساً يعانون منه في ظاهر حياتهم شدة وقسوة ومرارة، ويتمثل ذلك في العيش الضنك، والتضييق في الرزق والمعيشة والجوع والخوف، وعدم الاطمئنان في الحياة الدنيا، وقد يكون أيضاً بما يقع عليهم من القتل والتشريد والمهانة وسلب الأموال، وسبي النساء والذرية على أيدي أهل الإيمان، وغير ذلك من الخزي والهزيمة وقذف الرعب في قلوبهم.

وقد يكون أيضاً بإنزال المصائب وعاجل العقوبة عليهم في الحياة الدنيا، كما هو الشأن في الأقوام السابقين من أهل الشر والفساد والكفر من أقوام الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام.

- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

- وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

- وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢].

- وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٨٩].

- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

- وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤] .

- وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

[الأحزاب: ٢٥ – ٢٧] .

- وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

[الحشر: ٢ – ٤].

- وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾ [الأحزاب: ٩] .

- وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

- وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤].

- وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

- وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٨ – ٩].

- وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٥ – ٢٦].

- وقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢].

- وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩].

- وقال تعالى: ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات: ٣٨ – ٤٤].

- وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٤ – ٨].

- وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة: ٢٦].

- وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٢ – ١٤].

- وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦ – ٣٧].

- وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

- وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

- وقال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٩ – ٤٠].

- وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

هذا وإن مما يجب التنبه له أن أهل الإسلام والإيمان ليسوا بمأمن وعصمة من أنواع وأصناف هذه العقوبات العاجلة إن هم وقعوا في بعض المخالفات الشرعية، أو قصروا في بعض الواجبات الدينية، بل قد ينالهم منها على قدر ذنوبهم وظلمهم، فالذين يخالفون أمر الله وأمر رسوله ﷺ قد يلحقهم الوعيد في الدنيا قبل الآخرة.

- قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فيقذفونهم ويسيئون سمعتهم ويرمونهم بالبهتان لهم نصيب من وعيد الله، والذين يقطعون الأرحام ويعقون آباءهم وأمهاتهم، لهم كذلك نصيب من وعيد الله وعقابه في الدنيا قبل الآخرة.

- قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

- وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].
- وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»(١) . وفي رواية: «**قطيعة الرحم، والخيانة، والكذب**»(٢).
- وقال ﷺ : «**لا يدخل الجنة قاطع**»(٣)- أي قاطع رحم.

قال أهل العلم: معناه أن الله تعالى لا يوفقه إلى حسن الخاتمة، وحمله كثير منهم على أنه يختم له بسوء الخاتمة قبل الممات، وذلك هو الخذلان والخزي في الدنيا والعياذ بالله.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]. وذلك بنشر المقالات السيئة والنيل من أعراض أهل الإيمان.

٢ - الجزاء الإلٰهي الآجل:

وهو الجزاء الإلهي والعقاب العظيم الذي أعده الله تعالى لكلا الفريقين: للمؤمنين الصادقين وللمجرمين الفاجرين، وهو المقام الأبدي والجزاء الحقيقي، فإما نعيم مقيم في جنة الخلد، وإما عذاب أليم في جهنم وبئس المصير في مآل الأمر وعاقبته.

وهذا الجزاء لا يقتصر على ما أعده الله تعالى في الدار الآخرة والقيامة الكبرى من جنة ونار، حيث إنه يبدأ مع الإنسان كل بحسبه وحسب خلقه وسلوكه والتزامه، من اللحظات الأولى لمفارقته الحياة الدنيا وهو في استقبال آخرته، أي من القيامة الصغرى.

أولاً - الجزاء عند الاحتضار وقبض الروح:

- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» وأصحاب السنن عدا النسائي من حديث أبي بكرة ﷺ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩١٨).

(٢) أخرجها الطبراني من حديث أبي بكرة، وحسنها الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٣٧).

(٣) متفق عليه من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

- وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾. [الفجر: ٢٧ – ٣٠]

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ثانياً – الجزاء في القبور:

- قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩ – ١٧٠].

- وقال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥ – ٤٦].

- وقال عليه الصلاة والسلام : «**إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله**»(١) .

فالقبور في الحياة البرزخية إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النيران، **وفي حديث البراء بن عازب** رضي الله عنه بيان للجزاء الإلهي منذ اللحظات الأولى للإقبال على الآخرة والإدبار عن الدنيا، قال: «**خرجنا مع رسول الله** ﷺ **في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله** ﷺ **وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكث به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر**» – مرتين أو ثلاثاً – ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء، وإن كنتم ترون غير ذلك، فيأخذها فإذا أخذها لم**

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب، فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فينفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة، فيقول الله تعالى: «اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى»، فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: «أن صدق عبدي، فأفرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة»، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد البصر، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الرائحة، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة! رب أقم الساعة! حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في ذلك المسوح ويخرج منه كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث، فيقولون فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله عز وجل: «اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى»، فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] ، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول : هاه هاه لا أدري، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فقول : هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: « أن كذب عبدي، فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار»، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول : أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول : من أنت؟ فوجهك الذي يجيء بالشر، فيقول : أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة».

ثالثاً - الجزاء الدار الآخرة:

جعل الله تعالى الدار الآخرة دار الخلد وقرار الأولين والآخرين، يحاسبهم على جميع أعمالهم وسلوكهم، وجعله تتمة للجزاء الذي يكون من قبل القيامة الكبرى، قال الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

واليوم الآخر مقامات كثيرة وأحوال متعددة، وفي كل منها يتميز المؤمنون عن المجرمين في الجزاء:

١ - في المحشر:

- قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].
- وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ ﴾ [الإسراء: ٩٧].
- وقال تعالى: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ ﴾ [القلم: ٤٣].
- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ ﴾ [السجدة: ١٢].
- وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ ﴾ [الزمر: ٦٠].
- وقال عليه الصلاة والسلام : «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله....**» (١) الحديث.
- وقال أيضاً: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان**»(٢).

ويخرج الناس جميعاً من قبورهم عطشاً، ولا ماء يومئذ إلا من أحواض الأنبياء والوارد يومئذ كثير ولكن الشارب قليل، فلا يشرب إلا من كان مؤمناً صادقاً ملتزماً منهاج النبوة في الاعتقاد والسلوك والأخلاق.

إن الأنبياء يتباهون أيهم أكثر أصحاباً من أمته، فأرجو أن أكون أكثرهم كلهم واردة، وإن كل رجل منهم يومئذ قائم على حوض ملآن معه عصا يدعو من عرف من أمته، ولكل أمة سيماً يعرفهم بها نبيهم.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» والترمذي في «سننه»، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩١١).

وهكذا يتمايزون ويختلفون في محشرهم، فبينما أهل الصدق في السلوك والأخلاق يتنعمون بظل العرش، يكون المجرمون في شدة وكرب كل منهم على قدر جرمه ومخالفته تحت شمس دانية من رؤوسهم وكرب من الله عظيم.

وكذلك **عند تطاير الصحف** والسجلات والدواوين التي كتبت فيها أعمالهم، وأحصيت فيها سلوكياتهم، فإنهم يختلفون اختلافاً عظيماً.

وكذلك **عند الحساب الرباني** وحضور الشهداء أمام هذا العرض العظيم، فتكشف الأوراق وتهتك الستور ويكون الحساب، وكذلك عند **نصب الموازين** وعند الصراط المنصوب على متن جهنم، يختلفون في مرورهم ومجاوزتهم هذه المقامات على حسب سلوكياتهم، وأعمالهم التي كانوا عليها في حياتهم الدنيا، وما ربك بظلام للعبيد.

وفي نهاية مطافهم بون عظيم واختلاف بيِّن في مستقر كل فريق منهم، وما في ذلك المستقر من النعيم المقيم أو العذاب الأليم، وكل ذلك يتجدد في كل يوم وكل ساعة في حياة خالدة سرمدية لا تنقطع، ولا ينقطع ما فيها من ألوان النعيم أو ألوان الجحيم مما لا يخطر على قلب بشر، ولا تدرك مداه ومنتهاه العقول ولا تبلغه الأوهام والظنون.

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ – ١٤].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].
- وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨].
- وقال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣١ – ٣٥].
- وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ﴾ [الزخرف: ٧١].
- وقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ [التوبة: ٧٢]. ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢٢]. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

- وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].
- وقال تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] .
- وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [فاطر: ٣٧].
- وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩ – ٢٠].
- وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].
- وقال تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٣].
- وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾ [النساء: ٥٦].

نماذج مضيئة

من أرباب الأخلاق ومعالي السلوك

- قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].
- وقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦].
- وقال جلَّ وعلا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٩ – ٩٠].
- وقال عَزَّ وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. [الأحزاب: ٢١]

فالأنبياء والمرسلون هم أرباب الكمال والسمو الأخلاقي، وهم القدوة للخلق في الطريق نحو الكمال والفضل والسمو، وإن الناظر في كتب الشمائل ونصوص سيرة المصطفى ﷺ، ليجد بصورة واضحة العلو في الجانب الأخلاقي في جميع جوانبه، وكيف أنها كانت سجيةً وطبعاً فيه صلوات الله وسلامه عليه، لا يتكلفه أبداً ولا يضطرب فيه من وقت لآخر أو من شخص لآخر.

وها أنا أورد ملخصاً وموجزاً وخلاصةً لبعض النصوص من كتاب الشمائل المحمدية للإمام الترمذي المتوفى سنة (٢٧٩ هـ)، وكتاب أخلاق النبي وآدابه لأبي الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المتوفى سنة (٣٦٩ هـ)، نبراساً وضياءً يستضيء بها طلاب الكمال والسمو.

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، ما دعاه من أصحابه أو أهل بيته أحدٌ إلا قال: «**لبيك**»، وقد وسع الناس من خلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، يتواصلون فيه بالتقوى، متواضعين لله ولعباد الله يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا فاحش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من

ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيره ولا يطلب عوراته، وكان لا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وكان يصبر للغريب على الهفوة من منطقه ومسألته، ولا يقطع على أحد حديثه، وكان أبر الناس وأكرم الناس وأجودهم، ولا عبس في وجه أحد ولا عاتبه على شيء، ما رأى الناس أكثر تبسماً منه، كثير الحياء، وكان أشد فيه من العذراء في خدرها، ما قال لخادم قط فعل شيئاً: لم فعلته؟، ولا لشيء لم يفعله: ألا فعلته! وما سب أحداً ولا ضربه ولا انتهره. كان يعود المريض ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار ويردف عليه تواضعاً لله، وكان يخصف النعل ويرفع الثوب ويمتهن لأهله، وكان يسلم على الصبيان ويمازحهم، وكان أرحم الناس بهم حتى ليخفف من صلاته وعبادته لبكائهم، وكان رحيماً بأمته رفيقاً بهم، لا يغضب إلا لحق الله، وكان أكظم الناس لغيظه، متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير، دمث ليس بالجافي ولا بالمهين، يعظم النعمة وإن دقت، ولا يذم منها شيئاً، وكان يقوم الليل ويطيل القيام شكراً لله حتى تتفطر قدماه، كثير الاجتهاد وتلاوة القرآن ولزوم مجلسه ومصلاه لذكر الله تعالى.

وكان زاهداً في الدنيا وأمورها ولا يغضب لها، ما ترك بعده ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا أمة ولا بعيراً ولا شاة، بل ما شبع وآله من خبز بر ثلاثاً، وما رفع في مائدته كسرة فضلاً حتى قبض، وما شبع من خبز مأدوم حتى لقي الله، وكان يضع الحجر على بطنه من الجوع، وما أكل على خوان ولا أكل خبزاً مرققاً، وكان وآله يمر بهم الشهر وزيادة لا يوقدون ناراً ويعيشون على الأسودين، وكان عيشه كفافاً شبع يوم وجوع يوم، قال لعائشة: «**إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة، إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أولي العزم إلا الصبر على مكروهها، والصبر على محبوبها، ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾** [الأحقاف: ٣٥]**.وإني والله ما بد لي من طاعة، وإني والله ما بد لي من طاعة، وإني والله لأصبرن كما صبروا، وأجهدن ولا قوة إلا بالله**»، وقال أيضاً : «**ما أوحى الله إلي أن أجمع المال وأكون مع التاجرين، ولكن أوحي إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**»، وكان يقول: «**ما أنا والدنيا وما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب نزل تحت شجرة ثم راح وتركها**».

صلوات الله وسلامه عليه، بأبي هو وأمي، اجتمعت فيه خصال الخير والكمال حتى أحبوه حباً عظيماً، أكثر من حبهم لأنفسهم وأولادهم وأموالهم، وأحبوا فيه كل شيء وكل خصلة، وكانوا يتنافسون في محبته وتقديمه وبذل أرواحهم وأموالهم فداءً له، وإنهم والله لمعذورون في حبهم الجم فالجمال كله فيه، والكمال قد اجتمعت خصاله فيه والحسن كله فيه.

وحتى لا يُظن أن الأمر في بلوغ الكمال الإنساني خاص بالأنبياء ولعصمة الله لهم، أذكر طرفاً من صفات الصحابة الكرام، الأئمة الأعلام وقدوة الأنام بعد الرسل والأنبياء، وفي كتب السيرة والمناقب الشيء الكثير من ذلك، ولكني أورد للتمثيل لا الحصر، روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما في مجلس معاوية بالشام، وحوله رجالات قريش وبطونها لما سئل عن قوله في أبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً، قال: «رحم الله أبا بكر كان والله تالياً، وعن الميل نائياً، وعن الفحشاء ساهياً، وعن المنكر ناهياً، وبذنبه عارفاً، ومن الله خائفاً، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، ومن دنياه سالماً، وعلى عدل البرية عازماً، وبالمعروف آمراً، وإليه صائراً وفي الأهوال شاكراً، ولله في الغدو والرواح ذاكراً، ولنفسه بالمصالح قاهراً، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً زهداً وعفافاً وبراً وحياطة، وزهادة وكفاءة فأعقب الله من ثلبه اللعائن إلى يوم الدين».

وقال عن عمر : «رحم الله أبا حفص، كان والله حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحل الإيمان، وملاذ الضعفاء، ومعقل الحنفاء، للخلق حصناً، وللبأس عوناً، قام بحق الله صابراً محتسباً حتى أظهر الله الدين، وفتح الديار وذكر الله في الأقطار والمناهل وعلى التلال وفي الضواحي والبقاع، وكان عند الخنا وقوراً وفي الشدة والرضا شكوراً، ولله في كل وقت وأوان ذكوراً فأعقب الله من يبغضه اللعنة إلى يوم الحسرة».

وقال عن عثمان : «رحم الله أبا عمرو، كان والله أكرم الحفدة، وأوصل البررة، وأصبر الغزاة، هجاداً بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر الله، دائم الفكر فيما يعينه الليل والنهار، ناهضاً إلى كل مكرمة، يسعى إلى كل منجية، فرار من كل موبقة، وصاحب الجيش والبئر، وختن المصطفى على ابنتيه فأعقب الله تعالى من سبه الندامة إلى يوم القيامة » .

وقال عن علي : «رحم الله أبا الحسن، كان والله علم الهدى وكهف التقى، ومحل الحجا وطود البها، ونور السرى في ظلم الدجى، وداعياً إلى المحجة العظمى، عالماً بما في الصحف الأولى، وقائماً بالتأويل والذكرى، متعلقاً بأسباب الهدى، وتاركاً للفجور والأذى، وحائداً عن طرقات الردى، وخير من آمن واتَّقى، وسيد من تقمص وارتدى، وأفضل من حج وسعى، وأسمح من عدل وسوى .... لم تر عيني مثله، ولا ترى يوم القيامة واللقاء، من لعنه فعليه لعنة الله والعباد إلى يوم القيامة».

هكذا كانت مجالسهم رضي الله عنهم يتذاكرون من سبقهم من أهل الصدق والأمانة، يستعينون بذكراهم وسيرهم وأخلاقهم على التخلق بالمكارم والاقتداء بهم، كان هذا في مجلس معاوية وكان يسأل ابن عباس، والناس جميعاً يسمعون ويعتبرون، رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً، ولعن الله من لعنهم أو سبهم.

وروى الحاكم في مستدركه، لما مات أبو عبيدة بن الجراح فقام معاذ في الناس، فقال : « يا أيها الناس،

توبوا إلى الله توبة نصوحاً، فإن عبد الله لا يلقى الله تائباً من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن يغفر له، قال : إنكم أيها الناس، قد فجعتم برجل، والله ما أزعم أني رأيت من عباد الله عبداً قط أقل عمراً ولا أبر صدراً، ولا أبعد غائلة ولا أشد حباً للعاقبة، ولا أنصح للعامة منه، فترحموا عليه وأصحروا، ثم بعد دفنه قال : يا أبا عبيدة لأُثْنين عليك، ولا أقول باطلاً أخاف أن يلحقني بها من الله مقت: كنت والله – ما علمت – من الذاكرين الله كثيراً، ومن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، ومن الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً، وكنت والله من المخبتين المتواضعين الذين يرحمون اليتيم والمسكين، ويبغضون الخائنين المتكبرين ».

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحسن البصري في صفة الصحابة، وأنه بكى لما سئل ثم قال: «ظهرت منهم علامات الخير في السيما والسمت والهدي والصدق، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد وممشاهم بالتواضع ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، واستقادتهم للحق فيما أحبوا، وكرهوا وإعطاؤهم الحق من أنفسهم، ظمئت هواجرهم، وانحلت أجسامهم، واستخفوا بسخط المخلوقين رضى الخالق، لم يفرطوا في غضب الله، ولم يحيفوا في جور ولم يجاوزا حكم الله تعالى في القرآن، شغلوا الألسن بالذكر، بذلوا دمائهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم، ولم يمنعهم خوفهم من المخلوقين، حسنت أخلاقهم، وهانت مؤنهم، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم».

وذكر الإمام الرازي في مقدمة الجرح والتعديل الصحابة فقال:

« فأما أصحاب رسول الله فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ونصرته وإقامة دينه وإظهار حقه، فرضيهم له صحابة، وجعلهم لنا أعلاماً وقدوة... وندب الله عز وجل إلى التمسك بهديهم، والجري على منهاجهم والسلوك لسبيلهم والاقتداء بهم فقال : ﴿ومن **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ** ﴾ [النساء: ١١٥]».

وروى الآجري بسنده إلى الإمام الأوزاعي قوله فيهم:

«.... فاصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم».

تزكية النفس

إن من مقاصد بعثة محمد ﷺ ومهام رسالته التي جاء بها تزكية النفس وتهذيبها، قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة:٢] ، وقال ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، فالرسول جاء بما فيه صلاح القلوب وتزكية النفوس البشرية إن هي استجابت لدعوته وأمره ونهيه، ففي امتثال العبد وخضوعه لأمر الله وأمر الرسول تزكية عظيمة لنفسه، وتطهير لها من جميع أنواع الرذائل والمنكرات.

ولتحقيق هذه الاستجابة خلق الله تعالى الخلق وجعلهم محلاً للأمر والنهي، فأنزل الكتب وأرسل الرسل وألزم الخلق كلمة التقوى، وأرشدهم لما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة، ثم إنه جل وعلا خلى بينهم وبين مسؤولياتهم والتزامهم كل يعمل باختيار منه وقصد، وأمدهم لذلك بما يعينهم على الخير من الأسباب العظيمة بعد بيان سبل الرشاد، وسبل الغواية ترغيباً وترهيباً وتحذيراً، فأمدهم سبحانه وتعالى بفطرة سوية تقوم على حب الإله الفاطر والتأله له خوفاً ورجاء، قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

ثم أمدهم الله بآلات وأسباب لهذه الغاية العظيمة فأعطاهم القلب والسمع والبصر، بعد أن فطرهم على ذلك الخير العظيم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، ولكنه أخبر أن الفطرة قد تنحرف بسبب عوامل خارجية مثل الشياطين، وهم أول من صرف الفطر من الخير إلى الشر، بل إنها تزين الشر وتهون الطاعات، وتعرض الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل.

قال تعالى في الحديث القدسي: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللت لهم، وأَمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً**»(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالمؤثرات والمغيرات للفطر خارجية، منها ما يكون عامله الجن، ومنها ما يكون عامله الإنس من الآباء والأمهات والمربين وغيرهم، وكذلك الأمر في القلوب – العقول- والسمع والبصر، فقد يحول بينها وبين العمل بمقتضاها والاستفادة منها إذا وضعها المرء في غير موضعها، ولم يراقب الله تعالى فيها فسخرها في غير ما خلقت له، فيعود ذلك الإنسان كمن لا سمع له ولا بصر ولا قلب.

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فزكاة النفس وسموها يقوم على صيانة الفطرة، وعلى إعمال السمع والبصر والفؤاد فيما خلقت له، وعدم إهمال ذلك بالجحود والنكران ومخالفة أمر الله ونهيه، وبموافقة الهوى واتباع النفس والشيطان، والحق أن القلب –الفؤاد- هو ملك الأعضاء والحواس جميعاً، فهو الآمر الناهي لجميع الأعضاء والجوارح، إن استقام استقامت وإن فسد فسدت، فهو الذي يحركها لتحقيق ما استجمع عليه همه لتحصيله، فإن أراد شيئاً ورغب فيه ترجمه إلى عمل وسلوك في الأعضاء لتحصيل ذلك المراد وتحقيقه فاستقامة السمع والبصر والأعضاء جميعاً إنما يكون باستقامة القصد والنية والإرادة الذي محله القلب.

قال رسول الله ﷺ : «....**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» (١) وقال عليه الصلاة والسلام : «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه**»(٢) وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه: « **أسألك قلباً سليماً** »(٣).

والحق أنه لا صلاح ولا استقامة للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته، ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه ويمتلئ من ذلك، وهذه هي حقيقة التوحيد ومعنى قول لا إله إلا الله، وهو العلم النافع علم الكتاب والسنة، علم البصيرة التي تؤثر في القلوب والإرادات، فلا علم يوصل إلى السمو والكمال إلا

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، والحاكم في «المستدرك» من حديث شداد بن أوس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٢٨).

ذاك، ولا علم يؤثر في الإرادة والقصد إلا ذاك، فإنه يجعل القلب صالحاً ليس فيه إلا إرادة الله وإرادة ما يريده الله وما يرضيه وما يحبه، ومن ثم تنبعث الجوارح فيما يريده الله وتكف عما يكره وبذلك تزكو النفس وتطهر، وتلك هي حقيقة الإيمان وكماله فإنه يعطي لله ويمنع لله، ويحب لله ويبغض لله، وذاك هو كمال الإيمان كما ثبت عن رسول الله ﷺ .

والقلوب تتفاوت صلاحاً وفساداً بحسب قبولها وإذعانها وانقيادها للعلم والأمر والنهي في الشرع، وقد بين النبي ﷺ هذا التفاوت فقال فيما صح عنه: « **إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»[1].

فالقلوب أوعية كالأراضي، والعلم كالغيث، ففي كل حياة ومنافع وأغذية وأودية، ولا صلاح للأرض ولا انتفاع للناس إلا بالغيث، وكذلك لا صلاح للقلوب إلا بالعلم والهدى الذي جاء به محمد ﷺ، والأصل في حصول المنفعة للقلب هو تواضعه وقبوله للعلم وعدم الكبر، ويوضح ذلك قول علي رضي الله عنه لكميل ابن زياد:

«يا كميل بن زياد، القلوب أوعية فخيرها أوعاها، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على الإنفاق- في رواية عن العمل – والمال تنقصه النفقة، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ..... مات خُزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ... أولئك هم الأقلون عدداً والأعظمون عند الله قدراً.... هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاته إلى دينه، هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم....» [2] .

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٩ – ٨٠).

*** فالقلوب تنقسم بحسب استجابتها وخضوعها إلى:**

١ - القلب الصحيح أو السليم:

قال الله تعالى:﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، وهو السالم من آفات الشهوات والشبهات، سلم من الشرك جليلة ودقيقه، وسلم من المتابعة والاقتداء بغير رسول الله لامتلائه بالتوحيد والإخلاص لله وبالمتابعة لرسول الله وحده في جميع أموره، فتراه يجرد النية والقصد لله، ويجرد المتابعة لرسول الله في جميع الأعمال الظاهرة والباطنة في العقائد والشرائع، ولا يقدم شهوة ولا شبهة على الله ورسوله، قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

٢ - القلب الميت:

وهو ضد السليم، الذي امتلأ بالآفات والأمراض حتى أشربها ثم انقاد وراءها حتى مات فأصبح لا يقبل الحق، ولا يقيم له وزناً ولا يعرف له قدراً، وهو غارق في الشهوات متبع للأهواء وساع لتحقيقها، غير آبه بسخط الله وعقابه واليوم الآخر.

٣ - القلب المريض:

وهو بين السليم والميت، فيه من السلامة شيء وفيه من الشهوات والشبهات أشياء، فتارة يميل إلى السلامة إن غلبت أسبابها، وتارة يميل إلى الموت والهلاك إن طغت أسبابه، فيه من الإيمان بالله ومحبته وطاعته، وفيه من محبة الشهوات والحرص على تحقيقها أو الاستجابة للشبهات وتقديمها، فهو القلب الذي تتصارع فيه قوى الخير وقوى الشر، قال الله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤]، فالفتنة لقلبين: المريض والقاسي، والنجاة وزيادة الإيمان للقلب المؤمن المخبت أي المطمئن الطائع الخاضع.

قال الله تعالى:﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدثر: ٣١].

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « **تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: على قلب أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنه ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه**»(١).

والحق أن صلاح القلب وتزكيته لا تكون إلا بالخضوع والتواضع لهدي الله، وبالامتثال والطاعة لشرع الله وأمره ونهيه، كل ذلك بعد التصديق والإيمان بالله تعالى رباً وخالقاً وبالرسول ﷺ هادياً ومتبوعاً، ولا تأثير لذلك على القلب إلا بتحقيق شرطين اثنين في جميع الاعتقادات والأعمال في الباطن والظاهر، فإن حقق العبد هذين الشرطين كان لذلك الاعتقاد أو العمل والسلوك أثره الإيجابي على صلاح القلب، ويؤتي بذلك الثمار والنفع الذي هو تزكية القلب وسمو النفس ورفعتها، وبانعدام الشرطين أو أحدهما يكون الاعتقاد أو العمل مهما شق وكلف عديم الفعالية، عديم الثمر، عديم الصلاحية والنفع، بل ربما كان له الأثر السلبي والضرر والفساد على القلب، والخبث والنتن على النفس.

والشرطان هما: الإخلاص والمتابعة.

قال الله تعالى:﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥]، قال ابن كثير في تفسير الآية: «أي أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً، (وهو محسن) أي اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما أي يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون موافقاً للشريعة، فيصح ظاهره بالمتابعة وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد».

فالاعتقاد والعمل إن كان خالصاً ولم يكن صواباً موافقاً للسنة فإنه لا يقبل ولا ينتفع به صاحبه، وكذا إن كان صواباً موافقاً للسنة في ظاهره ولم يكن خالصاً لله تعالى، فإنه لا يقبل ولا ينتفع به صاحبه.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه».

أولاً - الإخلاص :

هو إفراد الله عز وجل بالقصد والطلب في جميع الطاعات، وذلك بتنقية النفس ومجاهدتها من تعلقها بالشوائب والمفسدات في جميع الأعمال، وبتجريدها من حظوظ النفس والمكاسب العاجلة وبمخالفة النفس الأمارة، والشيطان من صرف القصد إلى غير الله، وعن خلوصها له وحده، والإخلاص تجرد للآخرة وبيع كلي للدنيا وحظوظها وأطماعها، وإقبال خالص على الله والآخرة في جميع الأعمال والطاعات، وإدبار عن الدنيا وما فيها من حب العلو والظهور والذكر، والثناء والمدح والرئاسة وغيرها، فكم عامل يزين عمله لكسب قلوب العباد إما بطلب مدحهم والهرب من ذمهم، أو بطلب تعظيمهم له، وكسب أموالهم وخدمتهم ومحبتهم له، أو غير ذلك من العلل والشوائب.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة من الآية:٥]، جاء في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال : سمعت رسول الله يقول: « **الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١) ، ومن فوائد هذا الحديث :

١ - لا يقدم المرء على عمل اختياري إلا بنية وقصد وإرادة، وأنها هي سبب وجود العمل.

٢ - أن حظ العامل من عمله هو نيته، فلا ينتفع من عمله إلا بحسب نيته.

٣ - لا تغير النيات الأعمال المنكرة كالمعاصي والذنوب كما يتوهم ذلك كثير من العامة والجهلة بأن المعاصي والأخطاء والمخالفات تتحول إلى حسنات أو ينتفع بها صاحبها متى اقترنت بنية صحيحة.

٤ - هذا الحديث ميزان جميع الأعمال والطاعات في باطنها، فالإخلاص والنية محلها القلب الذي لا يطلع عليه إلا علام الغيوب، فليس لأحد أن يحكم أو يقضي في ذلك، فالسرائر توكل إلى الله تعالى وحده.

٥ - هذا وإن أعظم ما يواجهه العاملون والمؤمنون في هذا الباب هو الرياء، والشرك الأصغر أو الخفي، أخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟، قال : الرياء، يقول الله عزَّ وجل يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»(٢).

والنية والقصد وإخلاصه لله تعالى هو الأصل في جميع الأعمال، فإصلاح النيات وإخلاص المقاصد هو الأصل الذي يجب الاعتناء به والمجاهدة فيه، وإن قصرت أسبابه وقوته عن العمل، أو عجز عنه أو منع عنه لعذر، فإنه يثاب على حسن قصده وإخلاص نيته وإن لم يعمل.

---

(١) متفق عليه.

(٢) المسند (٥/ ٤٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢).

وقد بين ذلك الرسول ﷺ فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة؟، قال : وهم بالمدينة، حبسهم العذر**»(١). وقال رسول الله ﷺ : « **إن بالمدينة أقواماً، ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلا شاركونا في ذلك وهم بالمدينة، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟، قال: حبسهم العذر**»(٢) .

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة**».

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله عن النية : «هي رأس الأمر وعموده وأساسه وأصله الذي يبنى عليه، فإنها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابع لها يبنى عليها يصح بصحتها ويفسد بفسادها، وبها يستجلب التوفيق وبعدمها يحصل الخذلان، وبحَسْبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة»(٣).

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال : «ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي لأنها تنقلب عليّ»(٤).

وعن عبد الله بن المبارك عليه رحمة الله قال : «رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية»(٥).

وعن يوسف بن إسباط رحمه الله : «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد»(٦).

وعن يوسف بن حيف الرازي رحمه الله : «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه ينبت فيه على لون آخر».

ومن دعاء مطرف بن عبد الله رحمه الله : «... وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث أنس رضي الله عنه، ومسلم في «صحيحه» بنحوه من حديث جابر رضي الله عنه.
(٢) انظر تخريج أحاديث الإحياء (٣).
(٣) إعلام الموقعين (٤/ ١٩٩).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية»، وأبو نعيم في «الحلية».
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية».
(٦) المصدر السابق .
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

ثانياً - المتابعـــة:

لا يكون العمل صالحاً ولا مقبولاً أي لا أثر له في تزكية القلب وطهارة النفس وسموها، إلا أن يكون بعد الإخلاص لله تعالى فيه موافقاً لهدي النبي ﷺ فيكون العامل **متابعاً في** عمله ذلك للنبي ﷺ في أصل العمل وثبوته، وفي كيفيته وصفته ووصفه ومقداره وكمه قال النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[(١)]. وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**».

والحديث أصل عظيم من أصول الإسلام في تقرير الميزان الشرعي للأعمال وقبولها، وهو ميزان الأعمال في ظاهرها وصورتها وصفتها، يتعلق بظاهر العمل وصفته وكيفيته ووقته ومقاديره، مما يدركه الناس ويعرفون فيه الصواب والخطأ، والموافقة والمخالفة حسب عملهم بالسنن والآثار فكل عمل لا يكون على أمر الله وأمر رسوله فهو مردود على عامله، وكذلك ما أحدثه الناس من أعمال وعبادات لم يأذن بها الله، ولم يفعلها رسول الله وليست من الدين في شيء وبدعته وضلالته مردودة وإن نسبت إلى دين الله تعالى وأضيفت إليه، وهذه لا ينتفع بها أصحابها وإن حسنت نياتهم بل إنها تضرهم، وهذا عام في أمور الاعتقاد والعبادات والأخلاق والسلوك.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

يوصي الله تبارك وتعالى باتباع سبيله وصراطه، وهو ما جاء به رسول الله ﷺ، ويحذر غاية الحذر من متابعة أهل الأهواء والبدع، وهم لا شك من أشد الناس مخالفة لهدي النبي ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: «**أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة**»[(٢)].

وجاء في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «**... فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»[(٣)]. وهذه وصايا الرسول لأصحابه وبيانه لسبيل النجاة وهو التمسك

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، وزاد النسائي «وكل ضلالة في النار».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وأبو داوود في «سننه» من حديث العرباض رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧).

بما كان هو عليه، وبما كان عليه الخلفاء، وهي وصية لمن بعدهم إلى يوم الدين، وإرشاد وتوجيه لما فيه الخير والصلاح والتزكية، وتحذير من البدع والحوادث المضلة عن الحق والضارة في الدنيا والآخرة، وفيها الأخبار عن تفرق الأمة وكثرة البدع والأهواء.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة – يعني الأهواء – كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة وأنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله**»(١). يقول الإمام ابن الأثير: «الكلب بالتحريك داء يعرض للإنسان من عض الكَلْب الكَلِب، فيصيبه شبة الجنون فلا يعض أحدا إلا كَلِب وتعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً»(٢) ، تشبيه بليغ فالأهواء إذا أشربتها القلوب تتمكن من صاحبها، ويصعب علاجه وينتشر سريعاً وتهلك من وقع فيها، وفي هذا التحذير والتشبيه كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال رسول الله ﷺ: «**... فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(٣).

ولقد عاش الصدر الأول من رجال هذه الأمة متمسكين بالكتاب والسنة معتصمين بهما، وكذلك التابعون لهم بإحسان قد اشتهروا بشدة الحرص على السنة والاتباع، وشدة الحذر من المخالفة والابتداع، وشدة البغض والعداوة لأهلها.

* يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لأصحابه بعد أن وضع حجرين أحدهما على الآخر: «هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور؟ ، قالوا: ما نرى بينهما من النور إلا قليلاً، قال: والذي نفسي بيده لتظهرن البدع حتى لا يرى من الحق إلا قدر ما ترون ما بين هذين الحجرين من النور، والله لتفشون البدع حتى إذا ترك منها شيء قالوا: تركت السنة»(٤).

* ويقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «... إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني وإن زغت فقوموني»(٥).

* ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: «عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع»(٦).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وأبو داوود في «سننه» من حديث معاوية رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الظلال» (٢).
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (ص ٨١٠).
(٣) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه.
(٤) أخرجه ابن وضاح في «البدع» (ص ٢١).
(٥) انظر تاريخ الطبري (٢/ ٤٥٠، ٤٦٠)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/ ٣٠١).
(٦) أخرجه الدارمي في «سننه» (١٣٩).

* ويقول ابن عمر رضي الله عنهما: «كل بدعة ضلالة، وإن رآها الناس حسنة»[١].

* ويقول ابن مسعود ﷺ: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض ، وإياكم والتنطع والتبدع والتعمق ، وعليكم بالعتيق»[٢]. ويقول أيضاً: «اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم»[٣] ، ويقول أيضاً: «اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة»[٤].

* ويقول ابن مسعود لما جاءه أبو موسى بخبر القوم الذين تحلقوا في المسجد يذكرون ويعدون الحصى ينتظرون الصلاة : «ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ ، قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء أصحاب محمد متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة أهدى من ملة محمد، أو مفتتحوا باب ضلالة؟ ، قالوا: يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصبه ...»[٥] .

* ويقول سفيان الثوري رحمه الله: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها»[٦].

* ويقول الإمام مالك رحمه الله: «إياكم والبدع، قيل وما البدع يا أبا عبد الله؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته، وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون »[٧] ، ويقول رحمه الله: «لو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة كما تكلموا في الأحكام»[٨].

* وذكر الشاطبي عن ابن الماجشون قال: سمعت مالكاً يقول: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣] ، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً»[٩].

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد»، والبيهقي في «المدخل».
(٢) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف»، والدارمي في «سننه».
(٣) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد»، والدارمي في «سننه».
(٤) أخرجه المروزي في «السنة»، والطبراني في «الكبير».
(٥) أخرجه الدارمي في «سننه» (٢٠٨).
(٦) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد»، وأبو نعيم في «الحلية».
(٧) أخرجه أبو عثمان الصابوني في «عقيدة السلف» (٢٤٤).
(٨) انظر شرح السنة للبغوي (١/ ٢١٧)، وأحاديث في ذم الكلام وأهله (٥/ ٧٣).
(٩) انظر الإحكام في أصول الأحكام (٦/ ٢٢٥)، وشرح السنة للبغوي (١/ ٢١٧).

* ويقول الشافعي رحمه الله: «لأن يبتلي الله المرء بكل ذنب نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من الكلام»[1].

* ويقول الإمام أحمد عليه رحمة الله: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء وترك البدع وكل بدعة ضلالة»[2].

* ويقول محمد بن أسلم رحمه الله: «من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»[3].

* ويقول الأوزاعي عليه رحمة الله تعالى: «أصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم»[4].

ويقرر الإمام الشاطبي أن مقتضى هذه النصوص والنقول عن السلف أن كل بدعة ضلالة، وأنها على العموم لا استثناء ولا تخصيص فيها، فليس فيها ما هو هدي بل كلها مذمومة مستقبحة شرعاً وعقلاً وأن إجماع السلف ومن تبعهم على ذمها وتقبيحها والهروب عمن اتصف بها يدل على أن كل بدعة ليست بحق بل هي من الباطل.

كما قرر أن أسباب الذم تتلخص في:

(١) عدم استقلال العقول بمصالحها لعجزها وقصورها،

(٢) كمال الشريعة الدينية، فلا تحتمل الزيادة ولا النقصان.

(٣) في الابتداع اتباع للأهواء والشهوات، وهو شر محض.

(٤) حقيقة المبتدع أنه معاند للشرع ومضاد له ومطروح له – حيث طلب منه الامتثال وعدم التشريع فعاند وغير وبدل – وليس في المعاندة والمضادة تقسيم إلى حسن وقبيح أو مدح وذم إذ لم يصح استحسان مشاقة الشرع لا عقلاً ولا نقلاً.

* علامات أهل البدع:

لأهل الأهواء والبدع علامات جامعة تظهر عليهم، وبها يعرفون ويتميزون ومن أهمها:

---

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة»، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد».

(٢) انظر أصول السنة للإمام أحمد، وشرح أصول الاعتقاد للالكائي (٣١٧).

(٣) أخرجه أبو شامة في «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (١٧).

(٤) أخرجه الآجري في «الشريعة» (١/ ١٤٨).

(١) الفرقة والاختلاف.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، يقول ابن كثير رحمه الله: «الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له؛ فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ١٥٩] أي فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات؛ فإن الله تعالى قد برأ رسوله مما هم فيه»(١).

(٢) اتباع الهوى.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، يقول ابن كثير: «أي إنما يأتمر بهواه مهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين»(٢) ، وجاء في حديث النبي ﷺ المتقدم : « ... **وأنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء...**»(٣).

(٣) اتباع المتشابه.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧]، تلا رسول الله ﷺ الآية ثم قال: «**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**»(٤)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «سيأتي أناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»(٥).

(٤) معارضة السنة بالقرآن.

فالاكتفاء بالقرآن أو رد السنة بالقرآن من أبرز سمات أهل البدع، قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، ما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما**

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٢).
(٢) المصدر السابق (٤/ ١٩١).
(٣) (ص: ٦٨).
(٤) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ٦٢).

وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله فهو مثل ما حرم الله»[1]. يقول الإمام البربهاري: «إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، أو يرد الآثار أو يريد غير الآثار فاتهمه على الإسلام، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع»[2]، ويقول: «وإذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر فلا يريده ويريد القرآن؛ فلا تشك أنه رجل قد احتوى على الزندقة؛ فقم من عنده ودعه»[3].

(٥) **بغض أهل الأثر وإطلاق الألقاب عليهم.**

يقول الإمام أبو حاتم الرازي: «علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل السنة حشوية، يريدون إبطال الآثار»[4]. ويقول الإمام أبو عثمان إسماعيل الصابوني: «وعلامات أهل البدع على أهلها بادية ظاهرة، وأظهر آياتهم وعلامتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي، واحتقارهم لهم وتسميتهم حشوية وجهلة وظاهرية ومشبهة؛ اعتقاداً منهم في أخبار رسول الله أنها بمعزل عن العلم، وأن العلم ما يلقيه الشيطان إليهم من نتائج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة....» [5] ويقول الإمام البربهاري رحمه الله: «والمستور من بان ستره، والمهتوك من بان هتكه، وإذا سمعت الرجل يقول: فلان ناصبي فاعلم أنه رافضي، وإذا سمعت الرجل يقول: فلان مشبه، أو فلان يتكلم بالتشبيه فاعلم أنه جهمي، وإذا سمعت الرجل يقول: تكلم بالتوحيد واشرح لي التوحيد فاعلم انه خارجي معتزلي...؛ لأن هذه الأسماء محدثة أحدثها أهل البدع»[6].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ، وأبو داوود ، وابن ماجة، والترمذي في «السنن» من حديث معد يكرب ﷺ ، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة» (١٢).

(٢) شرح السنة (ص: ٥١، ٥٤).

(٣) المصدر السابق .

(٤) انظر «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ١٧٩)، والعلو للعلي الغفار (ص: ١٩٠).

(٥) عقيدة السلف (ص:٢٩٩).

(٦) شرح السنة (ص : ٥٢).

موقف أهل السنة من أهل البدع

لاشك أن باب التكفير والتفسيق مما تعددت فيه الآراء، وتشتت فيه المذاهب والأهواء حتى طاشت فيه الأحلام وتحيرت فيه العقول والأفهام، وخاض الناس فيه مذاهب شتى حتى عظمت فيه بين أهل الإسلام الفتنة والمحنة، وألصقت بمذهب أهل الحق فيه الشبه والتهم حتى انحرف عن العدل إلى الإفراط والتفريط، فنجد أقواماً ينفون تكفير أحَد من أهل القبلة نفيا عاما قاطعا فلا يقولون بكفر أحد من أهل البدع مطلقاً، ونجد أقواماً يطلقون عنان التكفير على عامة أهل البدع ويخرجونهم عن دائرة الإسلام بلا ضوابط أو تفصيل، والحق وسط بين هؤلاء وهؤلاء، والأمر فيه تفصيل، فأهل البدع ليسوا على درجة واحدة،فمنهم من يستحق التكفير بإقدامه على قول أو فعل مكفر مع توافر شروط التكفير في حقه وانتفاء موانعه في حقه، وهذا هو قول عامة أهل السنة.

وحكمهم بالتكفير يبنى على أصلين عظيمين:

١ - دلالة الكتاب والسنة على أن القول والفعل المعين يوجب الكفر تصريحا.

٢ - انطباق الحكم على القائل لذلك القول، أو المرتكب لذلك الفعل انطباقاً تاماً واضحاً بحيث تتوافر فيه شروط التكفير وتنتفي عنه موانعه.

فأهل الحق هم أعدل الناس في إطلاق الأوصاف والأحكام على غيرهم من المخالفين وأهل البدع والأهواء، ولقد وضعوا أسساً وقواعد وضوابط في التعامل معهم تقوم على زجرهم وحملهم على التوبة والرجوع إلى الحق، وهذا هو أعظم المقاصد في أسس التعامل معهم، ثم حماية للعامة والمجتمع من الاغترار بالمبتدع وبدعته، ووقاية لعامة المسلمين من استحسان البدع والوقوع فيها تحذيراً لهم وصيانةً لدينهم، ثم حمايةً لأنفسهم من مخالطة المبتدعة والاعتياد على بدعهم؛ تحقيقاً للنصح للخاصة والعامة والنصح لله ولرسوله والدين، وتحقيقاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانةً للنفس من مخالطة أرباب الرذائل ورفقاء السوء ومواطن الشر؛ لذلك قرروا وجوب بغضهم وإظهار عداوتهم ومجانبة مجالسهم، وهجرهم تحقيقاً لقاعدة الولاء والبراء القائم على الحب في الله والبغض في الله، قال رسول الله ﷺ: «**من أعطى لله ومنع لله، وأحب لله وأبغض لله، وأنكح لله فقد استكمل الإيمان**»[1] ، وقال ﷺ : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله**

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وأبو داوود في «سننه»، والترمذي في «سننه»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٠).

ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

* قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قال الإمام القرطبي رحمه الله: «استدل الإمام مالك رحمه الله بهذه الآية على معاداة القدرية».

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨] ، يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: «في هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة».

* وقال عزَّ وجل: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣] ، قال القرطبي رحمه الله: «وهذا هو الصحيح في معنى الآية وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة»[2].

اتفاق وإجماع السلف على هجر المبتدع ، والعلة في ذلك:

١ – تحقيق قاعدة الولاء والبراء وتنفيذ أمر الله ورسوله.
٢ – صيانة النفس من البدع والأهواء.
٣– صيانة المجتمع وعامة المسلمين والعوام.
٤ – صيانة المخالف وحمله على الرجوع وتأديبه.

قال عليه الصلاة والسلام: «**سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم**»[3]، وعن ابن عمر في القدرية: «إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني»[4]، قال شعبة: «كان سفيان الثوري يبغض أهل الأهواء وينهى عن مجالستهم أشد النهي»[5] ، قال أبو قلابة: «لا

(١) متفق عليه من حديث أنس ﷺ.
(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٩٢).
(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه».
(٥) أخرجه أبو الفضل المقرئ في «أحاديث في ذم الكلام وأهله» (٥/ ١٤٢).

تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ويلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[1]، وقال الإمام أحمد: «أهل البدع ما ينبغي لأحد أن يجالسهم أو يخالطهم ولا يأنس بهم» ، وقيل للأوزاعي عن رجل يجالس أهل السنة ويجالس أهل البدع، فقال: «هذا رجل يريد أن يسوي بين الحق والباطل». وقال البغوي رحمه الله: «وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم وعلماء السنة على هذا مجمعين، متفقين على معاداة أهل البدع ومهاجرتهم»[2].

يقول الإمام إسماعيل الصابوني رحمه الله في وصف عقيدة السلف وأهل الحديث: «ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الدين ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم من سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان وقرَّت في القلوب ضرت، وجرت إليها من الوساوس والخطرات ما جرت »[3]. ويقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه (هجر المبتدع) [4]:

«وهذه القاعدة من مسلمات الاعتقاد في الإسلام؛ لكثرة النصوص عليها في الكتاب والسنة والأثر، ومن أولى مقتضياتها التي يثاب فاعلها ويعاقب تاركها: البراءة من أهل البدع والأهواء ومعاداتهم، وزجرهم بالهجر ونحوه على التأبيد حتى يفيئوا، وهذا معقود في عامة كتب اعتقاد أهل السنة والجماعة، فالحاصل أن من الأصول المقررة عند أهل السنة مشروعية بغض أهل البدع، ووجوب معاداتهم ومجانبتهم في كل شيء، وأن ذلك من البغض في الله الذي هو ثمرة من ثمرات الإيمان، ودليل على علو درجته وكماله؛ لذلك نجد في سيرة النبي ﷺ أنه كان أشد الناس غضباً عندما تنتهك محارم الله، وكذلك نجد في سيرة الصحابة الكرام ومواقفهم من المخالفين وجهادهم حتى عشيرتهم وأهليهم في ذلك، فالواجب اتباعهم وموافقتهم في منهجهم، وأن من أسباب قطع محبتهم ومودتهم: ترك السلام عليهم لأن السلام من أسباب جلب المحبة والمودة في القلوب، ويقول الإمام أحمد: «إذا سلم الرجل على المبتدع، فهو يحبه» ، ثم ترك مجالستهم ومخالطتهم في المساكن والأعمال والأنس بهم، ثم عدم قبول إحسانهم وهداياهم لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، يقول عبد الله بن المبارك: اللهم لا تجعل لصاحب بدعة عندي يداً، فيحبه قلبي».

ويقول الشيخ حمود التويجري رحمه الله: «إذا علم تحريم موالاة أعداء الله تعالى وموادتهم، فليعلم أيضاً أن الأسباب الجالبة لموالاتهم وموادتهم كثيرة جداً، ومن أقربها وسيلة مساكنتهم في الديار ولاسيما ديارهم الخاصة

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ١٢٠).
(٢) شرح السنة (١/ ٢٢٧).
(٣) عقيدة السلف (ص: ٢٩٨ – ٢٩٩).
(٤) (ص: ١٩).

بهم، ومخالطتهم في الأعمال، ومجالستهم في المجالس ومصاحبتهم وزيارتهم واستزارتهم، وتولي أعمالهم وتوليهم في أعمال المسلمين، والتزيي بزيهم والتأدب بآدابهم، وتعظيمهم بالقول أو الفعل».

ومما يجب التنبه له هو التفريق بين من كانت أصوله جميعها أصولاً مبتدعةً، وبين مَنْ كان مِنْ أهل السنة ولكنه وافق أهل البدع في مسألة أو أكثر لغفلة، أو خطأ في الاجتهاد، يقول الإمام عبد الله بن المبارك: «رب رجل في الإسلام له قدم حسن وآثار صالحة، كانت منه الهفوة والزلة، لا تقتدي به في هفوته وزلته». ويقول شيخ الإسلام: «كثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنها بدعة؛ إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها، وإما لرأي رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم»[1].

ولكن هذا الخطأ وهذه الزلة من أمثال هؤلاء لا يمنع المسلم من التحذير منها لعامة المسلمين، مع الاعتذار لهم إن أمكن فالحق ضالة المؤمن، ولا يجوز أن يترك الحق بعدما تبين لهم أنه حق، بدلالة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، لقول فلان مهما كانت له من المنزلة والشهرة والقبول بين الناس؛ فإن الحق لا يعرف بالرجال ولكن الرجال يعرفون بالحق، ودين الله تعالى أحق بالذب والصيانة والتعظيم من الرجال والدعاة وغيرهم.

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩١).

مرض القلب

جاء ذكر مرض القلب في كتاب الله على معنيين:

الأول:

- قال الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴾ [البقرة: ١٠].
- وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج: ٥٣].
- وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ... ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

الثاني:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فالأول يفسر بالشك والشبهة، والثاني يفسر بالشهوة.

فالقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء كالأبدان تماماً، ودواؤها وشفاؤها ليس بالأدوية الطبيعية وإنما بالأدوية الشرعية الإيمانية، فالشبهات والشهوات أمراض تعرض للقلوب، فواجب على المريض والعاقل الاهتمام والعناية بالقلب وتصحيحه وتقويمه، وذلك بالنظر في أمراض القلوب وعللها ثم علاجها.

فالجهل مرض عظيم، وأهم أعراضه وثمراته: الشبهات والشكوك والوسوسة، وكل ذلك من أخطر أمراض القلوب ومما تقود بصاحبها إلى الابتداع في دين الله، وهذه الأمراض يُستشفى منها بالعلم، أعني العلم النافع، وأما غير النافع فإنه يزيد المريض مرضاً، والرسول ﷺ بيَّن أن الجهل يُرفع بالعلم والسؤال لأهله، قال عليه الصلاة والسلام: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي[1] السؤال»[2].

---

(١) العي: الجهل.

(٢) أخرجه أبو داود من حديث جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٦٢).

والأهواء والشهوات كذلك من الأمراض الخطيرة على القلوب لأنها تحمل صاحبها على الانقياد والانصياع وراء الشهوات وتحقيق الملذات والانغماس في أوحال الرذيلة، حتى تجعله في حالة من السكر والعمى تحولان بينه وبين الهدى والخير والنافع والصالح، وتحولان بينه وبين أطباء هذه الأمراض وهم الأنبياء والرسل والصالحون، وكذلك تحولان بينه وبين الأدوية الإيمانية.

فالحاصل أن القلب الذي فيه من هذه الأمراض يكون ضعيفاً لا يقوى على دفع ما يرد عليه من الشبهات والشهوات، بخلاف القلب السليم الصحيح القوي بالعلم والإيمان واليقين والتقوى، فإنه يدفع جميع واردات الشبهات العلمية والنظرية، وكذلك واردات الأهواء والشهوات القلبية والنفسية، كحال الأبدان تماماً فالضعيف تغزوه الأمراض وتتمكن منه، وأما القوي المحصن فإنه يتغلب على الأمراض وأسبابها.

ومما لا شك فيه أن القرآن العظيم فيه شفاء لجميع أمراض القلوب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال عزَّ وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال من الآية : ٢٤].

فالقرآن شفاء لأمراض الجهل والشبهات، ولأمراض الشهوات، ففي القرآن من العلم والنور ما يزول به الجهل، وفيه من البينات والبراهين القطعية ما يزول به الشك، ويعرف به الحق من الباطل ويتميز به الهدى من الضلال، براهين وأدلة قطعية على مسائل التوحيد والنبوات والغيبيات والمعاد، والرد على أهل الأهواء والنحل والآراء الفاسدة، مما لا تترك مجالاً للشك والتردد التي هي أبواب ومفاتيح الشبهات العلمية والخبرية.

وفي القرآن من الحكمة في البيان والموعظة البليغة، والترهيب والترغيب والحث على الزهد في الدنيا وزينتها، وبيان حقارتها وفنائها أمام زينة الآخرة وخلودها، وفيه من الأمثال والقصص والعبر التي يتبصر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فيعرف الطريق الحق، ويختار السبيل القويم في أمور معاشه ومعاده، فيسعى لتحصيل ما ينفعه في الدارين واجتناب ما يضره فيهما، ولا يكون من الذين يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

علامات مرض القلب:

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

« وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه لانشغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله

بالحق وعقائده الباطلة؛ فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، وما لجرح بميت إيلام. وقد يشعر ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليه، فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء؛ فإن دواءه في مخالفة الهوى وذلك أصعب شيء على النفس، وليس شيء أنفع لها منه»[1].

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك، فأنت مؤمن**»[2].

فالشاهد:

١ - إن من أهم علامات مرض القلب عدم التألم والتوجع والتندم لفعل القبائح والسيئات من المعتقدات والأعمال، ثم إن الشعور ـ أعني عدم التوجع ـ يؤدي بصاحبه إلى موت القلب واستواء القبائح والفضائل عنده، بل ربما طغى عليه ذلك الإحساس فيشعر بالسعادة والسرور واللذة حين التلبس بالبدع والشركيات والخرافات، أو الوقوع في المعاصي والسيئات والمنكرات والمخالفات.

٢ - ومن علامات مرض القلب إيثار حظوظ النفس وشهواتها الفانية على طاعة الله، وحظوظ الآخرة الباقية الخالدة، فيقدم الشهوات وتحقيق الحظوظ على أمر الله وأمر رسوله ﷺ ويطيع هواه، قال الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٥٠ – ٥١].

٣ - ومن علامات مرض القلب إيثار الجهل على العلم بأحكام الشرع، وتفضيل الجهل، وهذه ثمرة عدم التألم والتوجع بالجهل، بل الرضى به والعياذ بالله.

٤ - ومن علامات مرض القلب إيثار المرض بعد معرفته وعدم السعي لدفعه وعلاجه؛ بحجة عدم الصبر على مرارة الدواء، ومنه إيثار ما فيه سبب زيادة المرض على ما هو شفاء وعلاج له، كما هو حال المعرضين عن ذكر الله وتلاوة كلامه والاهتداء بهديه، وإيثارهم الغناء والرقص الذي ينبت النفاق ويزيده في القلب، ومنه أيضاً اختيار قرناء السوء وإيثارهم على أهل الصلاح والتقوى الذين تحيا القلوب بهم

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٦٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»، وقد تقدم تخريجه (ص: ٣٧).

وتهتدي النفوس بمصاحبتهم، وأمثال هذا الإيثار كثير عند أهل البدع والأهواء والفسوق والفجور، قال الله تعالى يوصي نبيه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

أسباب نيل محبة الله:

١ - النظر في النعم والآلاء:

فالقلوب جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وكما قيل: « الإنسان عبد الإحسان» ، التقلب في نعم الله وآلائه جنيناً ووليداً وشاباً وحياً وميتاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: ٢٠] .

٢ - معرفة الرب والعلم به وبأسمائه وصفاته:

الكريم العظيم القادر الذي لا يعجزه شيء المتصف بجميع صفات الكمال والجمال ـ مع إحسانه العظيم ـ ، والأصل في الإنسان عدم محبة الجمال لذاته ـ إن كان صاحب قلب سليم وفطرة صحيحة ـ فكل جمال في الخلق أصله الخالق.

علامات محبة الله:

١ - الإكثار من ذكر الله:

من أحب شيئاً أكثر من ذكره، وبازدياد المحبة في القلب تتعدى من المحبوب نفسه إلى كل ما يضاف إليه ويحيط به وينسب إليه، يكون دائم السفر بقلبه ولسانه وحواسه إلى محبوبه، ويزداد عند الهدوء والسكون وانقطاعه عن الشواغل، عند:

* الركون إلى النوم.
* عند التنبه ورجوع روحه إليه.
* عند نزول المصائب والأهوال والشدائد.

٢- الانقياد والاستسلام لأمر المحبوب:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، المسارعة إلى تنفيذ مراده والسعي في إرضائه وإيثاره، يفرح بفرحه ويحب ما يحبه.

٣- الأنس بالله:

والتمتع بمناجاته ويتلذذ بالخلوة به، يغتنم الخلوات وهدوء الليل، قلب متعلق بالمحبوب ينتظر الصلاة قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، قال قتادة: «سكنت إلى ذكر الله، إليه واستأنست به»(١).

٤- الغيرة للمحبوب:

يحقق الولاء والبراء، يغار ويغضب عند انتهاك الحدود والمحارم والعصيان؛ لذلك يجاهد في سبيل مرضاته وإعلاء كلمته.

ثمرات محبة الله:

١ - النجاة من عذاب الله:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ ﴾ [المائدة: ١٨]، وجاء في الحديث القدسي: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ... وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**»(٢).

٢ - الرضا بقضاء الله تعالى.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة ﷺ.

علامات صحة القلب:

إن من أهم علامات صحة القلب امتلاءه بمحبة خالقه ومولاه وإيثاره سبحانه على غيره، والمحبة الخالصة الصادقة من أعظم محركات القلوب؛ فالقلب الذي امتلأ بحب الله وحب ما يحبه، فأحب رسول الله وأحب كتاب الله فإنه يحمل صاحبه على تحمل الأمر والنهي، ويعينه على الصبر على المكاره والنصب، وعلى التشمير والاجتهاد في طلب مرضاة المحبوب، كما يصونه عن الوقوع في الرذائل وسفاسف الأمور، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلى لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

وإن محبة الله ليس لها حد ولا منتهى، والله جل وعلا قد فطر قلوب خلقه على محبته والتعلق به، ولكن شياطين الإنس والجن قد اجتالت جماعات كبيرة وغيرت فيهم الفطرة وصرفتهم عن عبادة الله تعالى، والعبادة هي غاية المحبة مع غاية الذل والخضوع للمحبوب.

وللمحبة علامات وأمارات تدل عليها ولها شواهد وثمرات، فالقلب المشغول بحب الله تعالى تراه يُسخر جوارحه ووقته في طاعة الله واتباع أمره، ويستنكر معصيته، وتراه لا يجد راحة ولا لذة إلا في طاعة المحبوب ومرضاته، ويقدم ما يحبه الله على ما تحبه نفسه وما يميل إليه هواه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ومن علامات المحبة أن تراه لا يفتر عن ذكر مولاه ومحبوبه، فلا يزال لسانه رطباً بذكره وذكر فضائله وإحسانه وإنعامه، وذكر أسمائه وصفاته، وتراه يتلذذ بقراءة كلامه ومناجاته، وتراه لا يلتفت إلى غير محبوبه في جميع حالاته: في شدته ورخائه، في صحته ومرضه، وتراه مطمئناً بقضائه وقدره متيقناً بوعده وإرادة الخير له في كل أحواله، قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»(٢).

وتراه إذا انشغل عن محبوبه وعن خدمة مولاه حنَّ واشتاق وتلهف للعودة لخدمته وطاعته، قال رسول الله ﷺ: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»(٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام: «**يا بلال ، أقم الصلاة أرحنا بها**»(٤)، وتراه

---

(١) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه من حديث المغيرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داوود في «سننه»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٩٢).

مهتماً بتصحيح باطنه، يتعاهد قلبه، ويعالج الإخلال، مستقيماً مداوماً على تسخير جوارحه في خدمة مولاه، فلا يسمع إلا به ولا يبصر إلا به ولا يتحرك إلا به، بل لا ينام ولا يطعم إلا محتسباً خدمة مولاه.

ومن أهم علامات صحة القلب امتلاؤه بالخوف والرجاء من خالقه ومولاه، والخوف من الله من أعظم محركات القلوب إلى الله تعالى ، قال جل وعلا: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ، وقال سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]، والخوف دليل على معرفة الله وتعظيم قدره، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ، والخوف يحجز صاحبه عن الوقوع في المعاصي والمخالفات، ويمنعه من الجرأة على محارم الله قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

والرجاء كذلك من محركات القلوب إلى الله تعالى، وهو النظر إلى سعة رحمة الله ولطفه وإحسانه، فيجمع الرجاء إلى الخوف في سفره إلى مولاه طمعاً في رحمته وطلباً لعفوه وإنعامه، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

فالخوف يزجر صاحبه ويمنعه من الخروج عن الطريق والصراط، والرجاء حقيقته دفع النفس إلى العودة إلى رحاب المولى مع التماس لطفه، وعدم القنوط من رحمته، وبذل الأسباب الموصلة إلى مرضاته، يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن ينتبه له؛ فإنه لا تحصل له العبودية بدونه»[1].

ومن أهم علامات صحة القلب، عدم الاستيحاش في الطريق إلى الله تعالى؛ لقلة السالكين ورفقاء الطريق؛ لأنه يأنس بخالقه ومولاه وإن كان وحيداً، فلا يلتفت إلى ملل الكفر وقوتهم وكثرتهم، ولا يلتفت إلى كثرة الفرق في ملته وقلة أهل الحق.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥).

ويتسلى بالتزام منهج سلف الأمة ومرافقة الرعيل الأول، الذي صدق مع ربه فصدقهم وجعلهم مع النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن بهم رفيقاً فيأنس لرفقتهم ومتابعتهم والاقتداء بهم سلفاً وقدوة وأسوة، يتسلى بالحق وأهل الحق أحياءً وأمواتاً ويصبر على ذلك، ولا يكترث بكثرة المخالفين من أهل البدع والأهواء والمعاصي والشهوات، ولا يغتر بقوتهم أو ظهورهم وعلوهم في أمور الدنيا.

- قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦].
- وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].
- وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].
- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].
- وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].
- وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].
- وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].
- وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].
- وقال تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٣ – ١٤].
- وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩].
- وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧].
- وقال تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩].
- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات: ٧١].
- وقال تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].
- وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٨].

يقول نعيم بن حماد: « إذا فسدت الجماعة، فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك

فإنك أنت الجماعة حينئذ»[1]. وعن بعض السلف: «المراد بالجماعة لزوم الحق وإتباعه وإن كان المتمسك به قليلاً، والمخالف له كثيراً»[2].

وعن علي ﷺ أنه قال: «أولئك الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً»[3]، وعن ابن مسعود ﷺ قال: «لا يكونن أحدكم إمعة... يقول: أنا مع الناس... ليوطنن أحدكم نفسه على إن كفر الناس أن لا يكفر»[4].

فالمؤمنون من الناس قليل، والعلماء من المؤمنين قليل، والعاملون الربانيون من العلماء قليل.

ويقول أيضاً ﷺ: «من كان مستناً فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، كانوا أفضل هذه الأمة: أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[5]. ويُروى نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ويقول عمرو بن ميمون التابعي الجليل: «صحبت معاذاً باليمن، فما فارقته حتى واريته بالتراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود، فسمعته يقول: «عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله مع الجماعة» ، ثم سمعته يوماً من الأيام يقول : «سيولى عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة، قال: قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري ما تحدثونا؟ ، قال: وما ذاك؟ ، قلت: تأمرني بالجماعة تحضني عليها، ثم تقول: صل الصلاة وحدك فهي الفريضة، وصل مع الجماعة فهي نافلة، قال: يا عمرو بن ميمون، قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟ ، قلت: لا ، قال: «إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك»[6].

ويقول الحسن البصري رحمه الله: «السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقلهم فيما بقى: الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكونوا كذلك»[7].

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص:٢٧).
(٢) المصدر السابق (ص:٢٦).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية».
(٤) أخرجه الترمذي في «سننه»، وأبو نعيم في «الحلية».
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية».
(٦) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص: ٢٢).
(٧) أخرجه الدارمي في «سننه» (٢٢٠)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٢٩٧).

أسباب أمراض القلوب

إن أمراض القلوب تكمن في المعاصي والمنكرات والمخالفات الشرعية، كما أن صلاحها يكون في طاعة ربها وخالقها، والوقوف عند حدوده وأمره ونهيه، فالمعاصي والمخالفات سموم القلوب وداؤها القاتل، يقول عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وفي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه المتقدم[1]: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً... »، يبين الرسول الكريم ﷺ أن الفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، سواء كانت فتن الشبهات التي تفتك في الجانب العلمي الاعتقادي الخبري، أو كانت فتن الشهوات التي تقدح في سلامة النية والقصد وحسن الإرادة والامتثال والطاعة للأمر والنهي، فالمعاصي والمخالفات كلها سموم للقلب، وأسباب حقيقية لأمراضها وهلاكها؛ لذلك حذر الشارع منها ونهى عنها سلامة للقلوب وصيانة لها من الأمراض، فكل ما حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ لا شك أنه سبب من أسباب الأمراض، وداء عضال يفتك بالقلب ويؤدي إلى هلاكه وعطبه.

ثم الفضول في المباحات وإشباع شهوة النفس في التمادي في المباحات، ذريعة ووسيلة أخرى لمرض القلب؛ فهي سموم قاتلة لا يشعر بها كثير من الناس لتلبسها بالمشروعات والمباحات، ولموافقتها هوى النفس وشهواتها ورغباتها؛ لذلك فهي قد تؤدي إلى هلاك القلب وموته وصاحبه لا يشعر، بل قد يرى نفسه من الذين يحسنون صنعا والعياذ بالله.

* عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ...** »[2].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[3].

فمن كمال إسلامه وإحسانه في دينه أن يترك مالا يعنيه من المحرمات والمشتبهات والمكروهات، وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها في إسلامه وإحسانه.

* وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً لما به البأس**»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه».

(٢) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داوود والترمذي في سننهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩١١).

(٤) أخرجه الترمذي وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤٣٥).

* ويقول ابن عمر رضي الله عنهما : «إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال»[1].
* ويقول الحسن البصري رحمه الله: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام».
* ويقول ابن عيينة رحمه الله: «لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه»[2].

فالأسباب إذاً تنحصر في الفتن:

١- التي تعرض بين حين وآخر.
٢- في المعاصي والمنكرات التي نهى عنها الشرع .
٣- في الاسترسال في فضول المباحات المشروعة.

والقسم الثالث هي التي تهم الملتزمين بشرع الله والمتمسكين بصراطه المستقيم؛ لأن القسم الأول والثاني واضحان لا خفاء فيهما ولا لبس، والعلاج منهما أوضح، وأما سموم الفضول فإنها تخفى على كثير من الناس، أعنى أهل الالتزام وطلاب العلم ؛ لأنها من باب الشبهات التي تخفى إلا على من رحمه الله، ومن باب المباحات التي يطلق الناس فيها العنان لأنفسهم وغيرهم.

والفضول: من الفضل، والفضل تعني الزيادة والعفو، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ، والعفو: أي الفضل، وعن ابن عباس قال: «ما يفضل عن أهلك»[3]، فالأصل في الشرع عدم المبالغة والزيادة في جميع الأشياء، المباحات وحتى الواجبات.

فالزيادة في الواجبات باب من أبواب الغلو الذي نهى عنه الشارع، وحذر منه غاية الحذر، واعتبره خروجاً عن هدي النبي ورغبة من الفاعل عن سنته ﷺ، وفي قصة الثلاثة الذين أتوا إلى بيوت النبي دليل واضح، وكذلك ما جاء من النصوص التي نهى فيها النبي ﷺ عن إطرائه، وحذر من المبالغة في مدحه رغم استحقاقه عليه الصلاة والسلام بأبي هو وأمي.

وهكذا الزيادة والفضل في المباحات؛ فإنها باب من أبواب مرض القلب وهلاكه، وأخطر هذه الفضول ما كان في: الكلام، والنظر، والمخالطة.

---

(١) الورع للإمام أحمد (ص: ٥١).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الورع»، وأبو نعيم في «الحلية».
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٤).

أولاً - فضول الكلام:

الأصل في الكلام أنه مباح، ولكن الله تعالى ورسوله أرشدا إلى ضوابط كثيرة منعاً للفضل والزيادة في هذا المباح، ورغبة في عدم الفضل فيه وذلك بإمساكه وصيانته إلا فيما ينفع ويجدي.

- قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣]
- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].
- وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].
- وقال جل وعلا: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].
- وقال عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]
- وقال عليه الصلاة والسلام: «**أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»(١).
- وقال أيضاً: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»(٢).
- وقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٣).
- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «إياكم وفضول الكلام، حسب امرئ ما بلغ حاجته».
- وعن إبراهيم النخعي قال: «يهلك الناس في خلتين: فضول المال، وفضول الكلام»(٤).
- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قَلَّ حياؤه، ومن قَلَّ حياؤه قَلَّ ورعه، ومن قَلَّ ورعه مات قلبه»(٥).

لذلك يُعلم أن ما ليس بخير من الكلام فالسكوت عنه أفضل من التكلم به، اللهم إلا ما تدعو إليه الحاجة مما لا بد منه، ولا شك أن إطلاق المرء للسانه العنان يفتح له أبواباً عظيمة من الشر والمعاصي التي تمرض القلب وتميته، وسيأتي زيادة بيان وتوضيح لهذا قريباً إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٤١).
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه ابن ماجة والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (ص: ٩٠).
(٥) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان».

ثانياً - فضول النظر:

وهو إطلاق النظر والاسترسال فيه، لدرجة امتلاء العين والبصر إلى ما استحسنه من منظورات تقع عليها، وإن كانت فيما حرم الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، ﴿مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾؛ لأن الأصل الإباحة، والمحرم منه هو ما كان فضلاً وزيادةً، وفيه أيضاً أن غض البصر وسيلة لحفظ الفرج وصيانته وتزكية النفس وطهارة القلب؛ فالبصر هو الباب الأعظم إلى القلب، وبعده السمع، ولكن تأثير البصر والنظر أعظم وأبلغ في القلب والنفس، كما جاء في الحديث: «**ليس الخبر كالمعاينة**»(١).

* وجاء في الحديث: «**والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس**»(٢).
* وقال عليه الصلاة والسلام: «**يا علي ، لا تتبع النظرة النظرة؛ فإنه لك الأولى وليست لك الآخرة**» (٣).
* وعن جرير أنه سأل النبي ﷺ عن نظر الفجأة، فأمره الرسول أن يصرف بصره (٤).

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله(٥):

«... أوما علمت أنه ليس شيء أضر على الإنسان من العين واللسان ؟، فما عطب أكثر من عطب إلا بهما، وما هلك أكثر من هلك إلا بسببهما، فلله كم من مورد هلكة أورداه، ومصدر ردى عنه أصدراه، فمن أحب أن يحيا سعيداً أو يعيش حميداً، فليغض من عنان طرفه ولسانه ليسلم من الضرر؛ فإنه كامن في فضول الكلام وفضول النظر، وقد صرح الصادق المصدوق بأن العينين تزنيان وهما أصل زنى الفرج؛ فإنهما له رائدان، وإليه داعيان ...أوما سمعت قول العقلاء: من سرح ناظره أتعب خاطره، ومن كثرت لحظاته دامت حسراته، وضاعت عليه أوقاته، وفاضت عبراته، وقول الناظم:

نظر العيون إلى العيون هو الذي ... جعل الهلاك إلى الفؤاد سبيلا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٧٣).
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك» وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١١٩٤).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وأبو داوود في «سننه»، والترمذي في «سننه» من حديث بريدة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٣).
(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه».
(٥) روضة المحبين (ص: ١٠٦ - ١٠٨).

ما زالت اللحظات تغزو قلبه حتى تشحط بينهن قتيلا

وقال الآخر:

تمتعتما يا مقلتي بنظرة وأوردتما قلبي أمر الموارد
أعيني كفا عن فؤادي فإنه من الظلم سعيُ اثنين في قتل واحد»

ثالثاً - فضول المخالطة:

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ويقول عز من قائل: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ – ٢٩] .

فمن الناس من تنقلب خلتهم وصحبتهم إلى عداوة وبراءة وملامة وحسرة يوم لا تنفع الحسرات، ويوم تنكشف الحقائق؛ فقد كانوا في دار الغرور إخواناً وخلاناً يخالط بعضهم بعضاً ويصاحب بعضهم بعضاً على غير هدى من الله وذكر له تعالى، ويقول الله تعالى يوصي رسوله وحبيبه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

ومنهم من حذر سبحانه من مخالطتهم أو طاعتهم أو الالتفات إليهم والنظر إليهم بعين الإعجاب والرضى، فضلاً عن مخالطتهم لما فيها من الخسارة والندامة، والأصل في هذا كما ترشد إليه الآية الكريمة هو التزام المنهج الحق، فمن كان مؤمنا داعياً الله تعالى وذاكراً له وجبت مصاحبته ومخالطته، لما فيها من دواء القلوب وشفاء الأمراض وزكاة النفس وسلامة القلب وصيانتها، وفي الحديث: «**لا تصاحب إلا مؤمناً**»(١) وهكذا، فكلما كان المرء أكثر التزاماً بالحق ونصحاً لله ولكتابه ولرسوله، وجب على العاقل مزيد حرص على مصاحبته، مع عظيم الصبر على تحمل ما قد يلقاه من شدة وعنت بسبب مخالطته له .

ومن كان مؤمناً فاسقاً، فإنه يخالط ويصاحب على قدر إيمانه وإن كان قريباً أو حبيباً، أو ممن تهوى مصاحبته ومخالطته القلوب، وهنا يظهر ويتجلى الميزان الحق في ذات الله تعالى، فإن مثل هذا يخالط لما لديه من إيمان، وأما في فسقه فإنه يخالط للنصح والإنابة، فإن حصل وإلا فلا يخالط، وهكذا، فكلما ازداد الإنسان في فسقه فإنه يجب الإقلال من مخالطته؛ فإن هذا الصنف هو الذي في فضل مخالطته الشر والهلاك للقلوب.

(١) أخرجه أبو داوود في «سننه»، والترمذي في «سننه» من حديث أبي سعيد ﷺ، وحسَّنه الألباني في «الكشاة» (٥٠١٨).

وأما من كان من أهل البدع والأهواء المنكرة والدعاة إليها، فانه يخالط للنصح وبيان الحق مهما كان أنيساً في المخالطة والصحبة، أو كان قريباً وحبيباً، ولا شك أن أهل الكفر والشرك لهم الحظ الأوفر من عدم المخالطة، بل تجب مفارقتهم ومباينتهم والتميز عنهم، فضلاً عن مخالطتهم أو الفضول في ذلك.

لذلك رغب كثير من السلف في العزلة والبعد عن الناس في الفتن، والاشتغال بالنفس والإقبال على إصلاح القلب والنفس محتجين ببعض ما ورد عن النبي ﷺ، وأصحابه:

* فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت : يا رسول الله، ما النجاة ؟، قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»(١).
* وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس خير ؟، قال : «**رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره**»(٢).
* وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لوددت أن بيني وبين الناس باباً من حديد، لا يكلمني أحد ولا أكلمه حتى ألقى الله سبحانه»(٣).
* وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كونوا ينابيع العلم، مصابيح الليل، أحلاس البيوت، جُدَدَ القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون على أهل الأرض»(٤).
* وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : «نعم صومعة المرء المسلم بيته، يكف لسانه وبصره، وإياكم ومجالس السوق؛ فإنها تلهي وتلغي»(٥).

وهذا قد رغب السلف من حيث الجملة فيمن ينبغي أن تؤثر صحبته أن تكون فيه خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا، أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل، فلا خير في صحبه الأحمق، فعن علي رضي الله عنه (٦):

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه ... فكم من جاهل أردى حليماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا المرء ماشاه ... وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

---

(١) حديث صحيح، تقدم تخريجه (ص : ٨٨).
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المتمنين» من قول زياد الأسدي.
(٤) أخرجه الدارمي في «سننه»، وأبو نعيم في «الحلية».
(٥) أخرجه ابن المبارك والإمام أحمد كلاهما في «الزهد»، وابن أبي شيبة في «المصنف».
(٦) أخرجه السلمي في «آداب الصحبة».

وأما حسن الخلق فهو المهذب للعقل، والحصن للعاقل حين الغضب أو غلبة الشهوة، وأما الفاسق فلا خير في صحبته؛ فمن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصداقته، وأما المبتدع ففي صحبته خطر سريان بدعته أو تعدي شؤمها إليه؛ إذ المبتدع مستحق للهجر والمقاطعة، وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ إذ الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء.

روى سعيد بن المسيب عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «عليك بإخوان الصدق فعش في أكنافهم؛ فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء»(١)، وقال: «واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين من القوم، ولا أمين إلا من خشي الله، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره..»(٢).

وعن علي رضي الله عنه أنه قال(٣):

إن أخـــاك الحـــق مـــن كـــان معـــك ... ومـــــن يـــــضر نفـــــسه لينفعـــــك

ومـــن إذا ريـــب الزمـــان صـــدعك ... شـــتت فيـــه شـــمله ليجمعـــك

ومن وصايا لقمان:

«يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله تبارك وتعالى ليحيي القلوب بنور الحكمة لتحيا بالحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء»(٤).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخوان»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وابن قدامة في «المتحابين في الله».

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد»، وابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن أبي الدنيا في «الصمت» وغيرهم.

(٣) وتنسب إلى أبي بكر بن داوود كما في شعب الإيمان للبيهقي.

(٤) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ»، وابن المبارك والإمام أحمد كلاهما في «الزهد»، والطبراني في «الكبير».

ذكر بعض أمراض القلوب

إن من أخطر الأمراض والآفات التي تميت القلوب، ما كان عن طريق اللسان الصغير بجرمه والعظيم بخطره؛ لكثرة آفاته وسمومه؛ لذلك أوصى الشارع وحث على حفظه وصيانته، حتى جعل الصمت علاجاً ودواء من الأمراض الناتجة عن كثرة الكلام المطلق، فضلاً عن القبح والسوء فيه؛ فإن كثرة الكلام الذي لا حاجة إليه يوجب قسوة القلوب.

- قال ﷺ: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس عن الله القلب القاسي**»(١) .
- وقال ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر....** »(٢) .
- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «والله الذي لا إله غيره ، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان»(٣).
- وعن وهب بن منبه رحمه الله قال: «أجمعت الحكماء أن رأس الحكمة الصمت»(٤).
- وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «**لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾** [السجدة: ١٦ - ١٧]، ثم قال: **ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت: بلى يا رسول الله، قال : رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه ثم قال: كف عليك هذا، قلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم- أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم**»(٥).
- وسئل عليه الصلاة والسلام عن أكثر ما يدخل النار فقال : « **الأجوفان : الفم والفرج**»(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤٢٣)..

(٢) أخرجه البخاري في زصحيحه» من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما واللفظ له، ومسلم «في صحيحه» من حديث جابر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد»، والطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٥٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت».

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وأصحاب السنن عدا أبي داوود، وصححه الألباني في «الإرواء» (٤١٣).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، والبخاري في «الأدب المفرد»، وابن ماجة في «سننه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة» (٣٤٢٤).

لذلك كان السلف رحمهم الله كثيراً ما يمدحون الصمت عن الشر وعما لا يعني لشدته على النفس؛ ولذلك يقع فيه الناس كثيراً، فكانوا يعالجون أنفسهم ويجاهدونها على السكوت عما لا يعنيهم، فعن الفضيل بن عياض قال: «ما حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يهمك لسانك أصبحت في غم شديد»(١)، وفي حديث معاذ: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله**»، أي بالذي يملك عليك ما سبق، وفي هذا دلالة على أن كف اللسان وجسمه وضبطه أصل كل خير، وأن من ملك لسانه فقد ملك أمره كله وأحكمه.

وآفات اللسان كثيرة، يقول الإمام عبد الرحمن بن رجب رحمه الله: «وظاهر حديث معاذ يدل على أن أكثر ما يدخل الناس به النار النطق بألسنتهم؛ فإن معصية النطق يدخل فيها الشرك وهي أعظم الذنوب عند الله عز وجل، ويدخل فيها القول على الله بغير علم وهو قرين الشرك، ويدخل فيها شهادة الزور التي عدلت الإشراك بالله عز وجل، ويدخل فيها السحر والقذف وغير ذلك من الكبائر والصغائر، كالكذب والغيبة والنميمة وسائر المعاصي الفعلية، لا يخلو غالباً من قول يقترن بها يكون معيناً عليها»(٢).

* الشرك والكفر:

- قال الله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤].
- وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ ﴾ [التوبة: ٦٥ – ٦٦].
- وقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت**»(٣).
- وقال أيضاً: «**أجعلتني والله عدلاً ؟ قل ما شاء الله وحده**»(٤). وفي رواية: « **أجعلتني لله ندّاً؟**»
- ومن ذلك أيضاً الحلف بغير الله، قال عليه الصلاة والسلام: «**من حلف منكم فقال في حلفه: باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله**»(٥).
- وقال ﷺ : «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت»، وأبو نعيم في «الحلية».

(٢) جامع العلوم والحكم (ص: ٢٧٤).

(٣) أخرجه ابن ماجة في «سننه» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة» (١٧٢٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» والبخاري في الأدب المفرد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الترمذي في «سننه»، والحاكم في «المستدرك» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٥٢).

*** الكــذب:-**

قال عليه الصلاة والسلام: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر...** »[1].

وأعظم الكذب ما كان على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، ومنه اليمين الكاذبة، وأعظمه اليمين الغموس، قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠] . وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[2].

وقال ﷺ: «**من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان، ثم قرأ:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧] »[3].

وقال ﷺ: «**الكبائر : الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»[4].

ومنه شهادة الزور، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** – وكان متكئاً فجلس فقال: - **ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور**». فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[5].

*** قذف المحصنات:**- قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»[6].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «عدلت شهادة الزور الشرك بالله ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠]»[7].

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه من حديث المغيرة رضي الله عنه.
(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود والأشعث بن قيس رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه البخاري من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٠١).
(٦) أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٧) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

*** أذى المسلمين وشتمهم:**

- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].
- وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه الناس، أو تركه الناس اتقاء فحشه**»(١).
- وقال أيضاً: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه** »(٢).
- وقال: «**إن الله تعالى قال : «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه .... وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته**»(٣) ».

*** الفحش والسب واللعن:**

- قال رسول الله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»(٤).
- وقال عليه الصلاة والسلام: «**ليس المسلم بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**»(٥).
- وقال أيضاً: «**لعن المؤمن كقتله**»(٦)، وأعظمه سب الصحابة ولعنهم والطعن فيهم رضي الله تعالى عنهم بعد سب الله تعالى ورسوله ﷺ ، قال عليه الصلاة والسلام : «**الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه**»(٧).
- وقال ﷺ: «**حب الأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق**»(٨).

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، والبخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي في «سننه» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٨١).
(٦) متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.
(٧) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، والترمذي في «سننه» من حديث عبدالله بن مغفل، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٩٠١).
(٨) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه.

- وقال ﷺ: « **إن الله اختارني واختار لي أصحاباً، فجعل لي منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**»(١).

*** الغيبة والنميمة :**

الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره وإن كان فيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**»(٢).

ومنه البهتان: وهو ذكرك أخاك بما ليس فيه على سبيل الذم والطعن، وأما النميمة: فهو نقل الحديث بنية الإفساد لذات البين وإن كان حقاً، قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام : «**إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله**»(٤).

*** الجدال والمراء:**

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] »(٥).

وجاء في الشريعة للآجري: «خرج إلينا رسول الله ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين؛ فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم انتهرنا فقال : «**يا أمة محمد، لا تهيجوا على أنفسكم وهج النار .....دعوا المراء لقلة خيره، ودعوا المراء فإن نفعه قليل ويهيج العداوة بين الإخوان؛ ذروا المراء فإن المراء لا تؤمن فتنته، ذروا المراء فإن المراء يورث الشك ويحبط العمل، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري؛ ذروا المراء فإن المراء – المماري – قد تمت**

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ، وضعفه الألباني في «الضعيفة (٣٠٣٦).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه».

(٣) متفق عليه من حديث حذيفة ﷺ، وفي رواية البخاري: «قتات» بدل «نمام».

(٤) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وابن ماجة، والترمذي في «سننهما» من حديث أبي أمامة ﷺ، وصححه الألباني في «المشكاة» (١٨٠).

حسراته؛ ذروا المراء فكفى بك إثماً ألا تزال مماريا، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة؛ ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة.... لمن ترك المراء وهو صادق....» [1].

وجاء في الحديث: «**أبعض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[2]، وجاء أيضاً: « **أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً**»[3]، وعن مسلم بن يسار أنه قال: «إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم وبها يبتغي الشيطان زلته»[4]، وعن أبي قلابة ﷺ قال: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ويلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[5].

ويقول محمد بن الحسن رحمه الله: «لما سمع هذا أهل العلم من التابعين ومن بعدهم من أئمة الدين لم يتماروا في الدين ولم يجادلوا، وحذروا المسلمين المراء والجدال، وأمروهم بالأخذ بالسنن وبما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهذا طريق أهل الحق ممن وفقه الله عز وجل »[6].

المدح والإطراء:

قال عليه الصلاة والسلام: « **لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم** ....» [7]؛ لأنه باب للغلو ومجاوزة الحد في تعظيم الناس والخلق، وهو باب للشر عظيم وفيه تزكية النفس في باب الخير والصلاح، وهو باب الاغترار بالأعمال والأمن من مكر الله تعالى، قال ﷺ: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»[8].

والإطراء هو المبالغة في المدح، والحاصل أن آفات اللسان كثيرة جداً، وكما ذكر الإمام ابن رجب رحمه الله من أن سائر المعاصي الفعلية لا تخلوا غالباً من قول يقترن بها ويعين عليها .

* ومن آفات اللسان :

السخرية والاستهزاء بالآخرين، والطعن في أنسابهم، وإظهار الشماتة في أهل الإسلام، وإفشاء السر وعدم حفظه، والكلام فيما لا يعني، والتفاخر بالأنساب ، والتقعر في الكلام ، والمن بالعطية والهبات، والنياحة على الميت ، والدعاء بالويل والثبور ودعاوى الجاهلية ، وغير ذلك كثير.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» والآجري في «الشريعة»، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١١٤).
(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه أبو داوود في «سننه»، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٤٨).
(٤) أخرجه الدارمي في «سننه»، وأبو نعيم في «الحلية».
(٥) انظر :أحاديث في ذم الكلام وأهله (٥/ ١٤٢).
(٦) الشريعة (ص: ٦٤).
(٧) أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث عمر ﷺ.
(٨) أخرجه مسلم في «صحيحه».

أحوال النفس الإنسانية

إن النفس الإنسانية البشرية هي التي تقود قلب صاحبها إلى الحق، وتسلك به الطريق الموصلة إلى مولاه وتقربه إليه جل وعلا، وهي أيضاً التي تحجب القلب عن الحق، وتمنعه من الوصول إلى مولاه وتحول بينه وبين القرب منه، وربما أهلكت صاحبها بإغراقه في أوحال الشبهات والشهوات، فمن ملك نفسه وظفر بها وانتصر عليها حتى تصير طوعاً له وتنقاد إليه، فهو الفائز الناجي وهو ذو القلب السليم الصحيح.

وأما من كان أسير نفسه ورهين شهواته، فقد ظفرت به نفسه وملكت عليه أمره، فانقاد لها سعياً في إشباع رغباتها وتحقيق ملذاتها، فهو الهالك ذو القلب الميت الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وكان الرسول الكريم ﷺ يقول في خطبه: «**الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**»[(١)]، وقال للحصين بن عبيد – والد عمران: « **قل: اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي**»[(٢)].

فالحاصل أن مخافة الرب تبارك وتعالى، ومخالفة النفس فيهما أسباب الرشد والفوز؛ إذ النفس تدعو إلى اللهو ومجاوزة حدود الله تعالى، والطغيان وإيثار الحياة الدنيا وزينتها، والانغماس في الملذات وشهواتها، والقلب بين داعي الرب عز وجل وبين داعي النفس، وهذا هو البلاء والابتلاء والمحنة في دين الله تعالى؛ إذ القلب محل العقل لتلك القوة التي أودعها الله الإنسان ليتميز به عن الحيوان بإدراك الأمور النظرية، وقيل: إنه نور روحاني يقذف في القلب أو الدماغ، به تدرك النفس العلوم الضرورية .

وقد جاء وصف النفس في كتاب الله بثلاثة أوصاف:

(١) المطمئنة.

(٢) والأمارة بالسوء.

(٣) واللوامة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وأصحاب السنن من حديث ابن مسعود ﷺ، وصححه الألباني في «الظلال» (٢٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه»، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٠٩٨).

أولاً – النفس المطمئنة :

هي النفس الزكية الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق حيث دار، وهي النفس المؤمنة المصدقة المخبتة إلى الله تعالى، وحقيقة الاطمئنان السكون والاستقرار، فهي التي سكنت إلى ربها وخالقها في جميع شأنها وأحوالها وافتقرت إليه وحده، وسكنت إلى محبته وعبوديته في جميع أمره ونهيه، وسكنت إلي التصديق بجميع أسمائه وصفاته، وسكنت إلى مولاها ورضيت به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً، وسكنت إلى لقائه ووعده يوم لا ينفع مال ولا بنون، وسكنت إلى قضائه وقدره فلم تفرح بما آتاها ولم تحزن على ما فاتها، وسكنت واستقرت على التواجد في مواطن رضاه، وسعت وسارعت فيما يحبه، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ – ٢٨]،

قال ابن عباس : «المؤمنة: المصدقة»، وقال مجاهد: «المؤمنة: المخبتة إلى الله».

فالطمأنينة في النفوس غاية كمالها وصلاحها، فتراها لا تستقر إلا في مواطن الطاعة، ولا قراراً ولا سكوناً عند المعصية والمخالفة، بل تضطرب إن وقعت أو سقطت في العصيان، وتسرع بالقلب إلى التوبة والرجوع والإخبات لمولاها، ولا تستقر ولا تهدأ حتى تكون الأعضاء جميعاً مسخرة لأمر الله ونهيه، ومدار ذلك على الافتقار المطلق لله تعالى وحده مع الاستغناء المطلق عن الخلق، قال عليه الصلاة والسلام: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»(١).

وفي الحديث القدسي: « **يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك؛ وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك**»(٢).

إن صاحب المال الكثير الذي لا يصرفه في الواجبات والمستحبات من وجوه البر والقربات؛ خشية نفاذه فقير صورةً ومعنىً رغم ما تحت يده من مال؛ لكونه لا ينتفع به دنيا ولا آخرة، وأما المتصف بغنى النفس فيكون قانعاً بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلح في الطلب، ولا يلح في السؤال بل يرضى بما قسم الله له، ولا يحزن ويتأسف على ما فاته، وهذا إنما ينشأ في المرء عن الرضا بقضاء الله والتسليم لأمره، وعن افتقاره الدائم لله تعالى في جميع أموره، قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ، فالخلق جميعاً فقراء إلى الله تعالى.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» و«الزهد»، وابن ماجة والترمذي كلاهما في «السنن»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥٩).

والافتقار نوعان: الفقر الاضطراري وهو الافتقار إلى ربوبية الله، فهو المعطي والمانع والمعز والمذل والرازق جل وعلا والفقر الاختياري وهو الافتقار إلى العبودية والخضوع والألوهية لله تعالى، فيلجأ إليه ويفزع إليه في جميع أحواله ويشكره على كل حال، فلا يلتفت بقلبه إلا إليه، ولا يتوجه إلا له سبحانه وتعالى، فهو فقير إلى ربه فقراً دائماً ونفسه غنية عن كل ما سواه، فلا يلتفت قلبه إلى شيء من حطام الدنيا، وبهذا يستحق أن يوصف بأنه غني النفس، أي غني عن غير الله تعالى .

ثانياً – النفس الأمارة بالسوء:

قال الله تعالى حكايةً عن صاحبة يوسف : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٣] ، فالسوء والشر كامن في النفوس البشرية، ولا يقر لها قرار إلا بحمل صاحبها على فعل الشر، فهي تنازع القلب ليحمل الأعضاء على معصية الله لما تجده من لذة وشهوة ومتعة في ذلك في عاجل أمرها دون الالتفات والاكتراث بالعواقب الآجلة، ثم تستمر في تحقيق اللذات والاستمتاع في الشهوات حتى يُران على ذلك القلب ويُختم عليه فيموت ميتة لا يفرق بعدها بين الحق والباطل ولا بين الخير والشر، بل ربما استمرأ تلك الحالة حتى ينتكس القلب والفؤاد فيرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً .

وهذه النفس الخبيثة تراها تطمئن بالجهل وتفر من العلم، كما تأنس بالغفلة عن ذكر الله وتتلذذ بالغدر والخيانة ونقض العهود، ولا تبالي بالتوبة والإنابة، وتراها أيضاً تأنس بالعجز والتمني عن الكيس والعقل، وبالجملة فهي شيطان إنسي لا تأمر إلا بالشر والسوء، ولا تطمئن حتى تؤدي بصاحبها إلى الردي والهلاك والخسران، وهذه النفس تقابل في أحوالها وداعيها النفس المطمئنة.

ثالثاً – النفس اللوامة:

قال الله تعالى : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١ – ٢] ، قال ابن عباس: «تلوم على الخير والشر، تقول لو فعلت كذا وكذا » وقال أيضاً: «تندم على ما فات وتلوم عليه»، وقال الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، ما أردت بكلمتي ؟ يقول: ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي؟ فلا تراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه»[1]. ويقول ابن القيم عليه رحمة الله: «وأما من جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها وأنها لا تستقر على حال واحدة»[2]، ويقول أيضاً :

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد»، (ص: ٢٨١).
(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٧٨).

«والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة؛ بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا»[1].

والنفس بقدر ما تصدق في لوم صاحبها عند اقتراف السيئات وفعل المنكرات، وتكثر عليه حتى تحمله على الرجوع والتوبة والإنابة، بقدر ما تكون ممدوحة، ثم هي إن استمرت على ذلك وداومت عليه، فإنها تنتقل من هذه الحال أي اللوامة إلى الاطمئنان الذي هو مدح لا ذم فيه لصاحبه. وأما إن ضعفت في اللوم حتى تعجز عن حمل صاحبها على الرجوع والتوبة، أو تفقد القدرة على حمل صاحبها على فعل الخيرات، وبغض الشر والمنكرات والإقلاع عن السيئات ثم استحسانها، ومن ثم تنتقل من هذه الحال أي اللوامة إلى الأمارة بالسوء.

(١) المصدر السابق.

محاسبة النفس

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٨ - ١٩] .

محاسبة النفس هي رأس مال العبد في سفره وهجرته إلى مولاه، والمحاسبة أعظم سبيل لتحرر القلب من النفس الأمارة ووساوسها، أو من وساوس الشيطان فإنهما – أعني النفس والشيطان – الداء العضال للقلوب.

وعلاج القلب من شرها إنما يكمن في :

١ - المخالفة: أي مخالفة داعي النفس ووسوسة الشيطان، وقد تقدم الكلام فيه .

٢ - المحاسبة: أي محاسبة النفس ووساوسها وخطراتها ودواعيها، وهلاك القلب وموته إنما يكمن في موافقتها، أي النفس والشيطان، وفي اتباع الأهواء، وفي الإهمال وعدم المحاسبة.

قال عليه الصلاة والسلام: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»(١).

وقال أيضاً : «**ليس الشديد من غلب الناس، إنما الشديد من غلب نفسه**»(٢).

وقال: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل**»(٣).

وجاء عنه عليه الصلاة والسلام قوله: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(٤).

وعن عمر بن الحطاب ﷺ قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم ، وتزينوا للعرض الأكبر ثم قرأ: ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ١٨] »(٥) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وابن ماجة والترمذي كلاهما في «السنن» من حديث شداد بن أوس ﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي في «السنن الكبرى» من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي في «سننه» من حديث فضالة بن عبيد ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٧٩).

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف»، و الترمذي في «سننه»، وأبو نعيم في «الحلية».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما لما سئل : ما تقول في الهجرة والجهاد؟، قال: «ابدأ بنفسك فاغزها، وابدأ بنفسك فجاهدها، فإنك إن قتلت فارّاً بعثك الله فارّاً، وإن قتلت مرائياً بعثك الله مرائياً، وإن قتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً»(١).

وعن وهب بن منبه رحمه الله قال : «مكتوب في حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه مع نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل؛ فإن هذه الساعة عون على تلك الساعات وإجماماً للقلوب»(٢).

وقالوا في المحاسبة : على المرء أن يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك لشريكه، بأن يذكرها بعيوبها وعصيانها، وإن بعد العهد ولا ينساها أبداً، وأن يتذكر أن محاسبة اليوم وشدته فيه راحة ليوم الحساب والعكس كذلك، وأن يتذكر أن في المحاسبة الفوز بالجنة والنعيم المقيم وفي الإهمال الخسارة والبوار، وأن في المحاسبة التزين والتجمل ليوم العرض الأكبر والمشهد الأعظم.

وحقيقة المحاسبة : النظر الدائم في الفرائض والنوافل وجميع محبوبات المولى تبارك وتعالى، وهل النفس في ازدياد منها أو نقصان، والنظر كذلك في المعاصي والمنكرات ومدي ازدياده فيها أو نقصانه منها؛ وأن ينظر في ذلك ناقدا محاسباً، فإن وجد خيراً فليحمد الله وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، وليجدد العزم والعهد على التوبة والإنابة والحرص على الخير.

والمحاسبة تكون قبل الأعمال وتكون بعدها، فيقف قبل العمل ويحاسب نفسه، ويزن ما همَّ بفعله قبل الشروع فيه، ثم لا يبادر حتى يترجح له الفعل على الترك، ويراجع نفسه في القصد والنية وكذلك في صحة الفعل وموافقته للشرع وحسن المتابعة فيه ، يقول الحسن البصري رحمه الله: «رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن أحداً لا يعمل حتى يهم، فإن كان لله مضى وإن كان لغير الله أمسك»(٣).

وأما المحاسبة بعد العمل فلها حالات:

١ - إن كان العمل طاعة، فإنه يحاسب نفسه على التقصير فيه وعدم الإحسان فيه من حيث الإخلاص ومن حيث المتابعة، وهذه تكون في الفرائض والنوافل بغية بلوغ مرتبة الإحسان .

---

(١) أخرجه الطيالسي في «مسنده» (١/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد»، وعبدالرزاق في «المصنف»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٤٥٨).

٢ - وإن كان العمل معصية، فإنه يحاسب نفسه من حيث الترك لما فيه من الخيرية، ثم يبادر على حمل نفسه على التوبة والاستغفار ومتابعتها بالحسنات لمحوها، وإن تضمن حق للعباد أعاده، كما يحاسب نفسه أيضاً على الغفلة والجرأة على محارم الله، وهذه تكون في المحرمات والمكروهات.

٣ - وإن كان العمل في المباحات الشرعية فإنه يحاسب نفسه لم فعلها ؟ وماذا أراد بها ؟ هل أراد الله والدار الآخرة؟ أم أراد حظوظ الدنيا ؟ فالعاقل من جعل من المباحات طاعات لله تعالى، وسخرها في مرضاته واستعان بنعم الله وآلائه على محابه جل وعلا.

وأما حكم محاسبة النفس فالوجوب، ومن الأدلة على ذلك :

- قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ [الحشر: ١٨] ، ففيه أمر من المولى لأهل الإيمان بالنظر والمحاسبة، قال قتادة: «مازال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد».

- وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ١ - ٨] ، قال قتادة: «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه».

- وقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، فالعبد محاسب عن كل شيء حتى سمعه وبصره وكل ما استرعاه الله تعالى؛ لذلك فإنه حقيق أن يحاسب نفسه قبل محاسبة الله له.

- وقوله جل وعلا: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣] ، فحري بالعاقل أن يعد جواباً قبل موعد السؤال، ويراجع نفسه قبل السؤال.

- وقوله سبحانه وتعالى : ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ ﴾ [آل عمران: ٣٠]، فليحاسب نفسه وليجعل بينه وبين ما يسوؤه ستراً، فلا يقدم عليه في الدنيا لئلا يكون في محضره وصحائفه إلا ما يَسُرُّه.

الإنسان والشيطان

يقول الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله: «اعلم أن الآدمي لما خلق ركب فيه الهوى والشهوة؛ ليجتلب بذلك ما ينفعه، ووضع فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه، وأعطي العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، وخلق الشيطان محرضاً على الإسراف في اجتلابه واجتنابه، فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي أبان عداوته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم»(١).

فالعداوة قديمة جداً بين الإنسان والشيطان وهي أصل العلاقة بينهما، فقد سأل الشيطان ربه تبارك وتعالى الانتظار والإمهال ليجند نفسه وحزبه وجنده لهذه العداوة، وستستمر إلى يوم القيامة مع جنس بني آدم، وهي مع كل آدمي من لحظة ولادته إلى قبض روحه ومفارقتها لبدنه، وقد حذر المولى تبارك وتعالى بني آدم هذا العدو غاية الحذر.

- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يوسف: ٥].
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].
- وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠ – ٦٢].
- وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ [الكهف: ٥٠].

ثم ذكر الله تعالى قصة الشيطان مع آدم لبيان هذه العداوة ولتحذير العباد منه، ففي قصة آدم عظة وعبرة، وفي قصص الأنبياء مع أقوامهم وكيف اجتالتهم الشياطين عظة وعبرة، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١]، والسعيد من وعظ بغيره والشقي

(١) تلبيس إبليس (ص: ٣٣).

والمحروم من كان واعظه من نفسه وفي نفسه، قال الله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧]، حذره المولى وحذر زوجته وأعلن العداوة وخوَّفه العاقبة والنتيجة، ثم كان ما شاء الله وما اختاره الأبوان الكريمان، فعاتبهما الرب فقال: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ثم قال الرب تبارك وتعالى محذراً بني آدم في آيات كثيرات منها: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ثم بين سبحانه وتعالى أعماله وما يقوم به في عداوته لبني آدم:

- قال عزَّ وجل: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]
- وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].
- وقال تعالى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .
[النساء: ١١٨ – ١٢٠]
- وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣ – ٦٤].
- وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٧ – ٣٨].
- وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

- وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].
- وقال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦].
- وقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٢٧ – ٢٨].
- وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ [فصلت: ٢٥].
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٥]

ثم بين المولى تبارك وتعالى أن طرائق الشيطان ووسائله، إنما تنطلي وتروج على من وطن نفسه لتصديق الشيطان وقبول ما عنده، وأما أهل الإيمان والتقوى الذين لا ينسون عداوته لهم في جميع أحوالهم، فإنهم في عصمة من غوائله وحبائله، ولربما زلت بهم الأقدام في موطن أو حالة، لكنهم سرعان ما يتذكرون علاقتهم به ولا يغترون بشعاراته وزينته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩ – ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾ [مريم: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقد ذكر الله تعالى هذه الحقائق على لسان الشيطان حيث يعلنها لأوليائه، ولكن يوم لا تنفع الذكرى ولا ينفع الندم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ، وأما موقف المؤمن إن أصابته لمة أو وقعت منه زلة فهو كما حكاه الله جل وعلا في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقد بينت الشريعة الإسلامية هذه العلاقة، وصور اتصال الشيطان ببني آدم وأنه قريب منه، وأنها تبدأ

مبكرة منذ لحظة ولادة المولود، ثم تبقى معه وعلى عدة صور وحالات من الاتصال ومحاولات التأثير، قال عليه الصلاة والسلام: «**كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بأصبعيه حين يولد غير عيسى بن مريم ، ذهب ليطعن فطعن في الحجاب**»[1]، فلا استثناء لأحد من الآدميين، وهذه بمثابة ختم شيطاني على جسد المولود أو زرع لأداة استقبال وساوسه، والاستماع لوعوده وأمانيه.

ويبين هذا العموم أيضاً قصة النبي ﷺ مع عائشة رضي الله عنها لما غارت لخروجه من عندها: «**ما لك يا عائشة؟ أغرت؟، فقالت : وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: أقد جاءك شيطانك؟، قالت: يا رسول الله، أومعي شيطان؟ قال: نعم ، فقالت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم ، فقالت: ومعك يا رسول الله؟ فقال: نعم، ولكن ربي – عز وجل – أعانني عليه حتى أسلم**»[2].

وقد بين الرسول ﷺ سهولة التأثير من الشيطان على بني آدم، وشدة قربه منهم وأن وسوسته تصل إليهم بلا مشقه ولا عناء، في قصة صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ لما زارته في معتكفه، ثم رافقها إلى منقلبها فمر رجلان من الأنصار فأسرعا، فقال عليه الصلاة والسلام: «**على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**» **فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: «إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً – أو قال: شيئاً**»[3].

وبين الشارع أن للشيطان من القدرة ما ليس لدي الإنسان، فتراه يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم؛ ولذلك فإنه وجنده وقبيله يرون بني آدم من حيث لا يراهم بنو آدم؛ لذلك يلتبس عليه الوارد والخيال، وربما ظنه وارد إيماني وخاطر ديني ودعوة ملائكية تدعوه وتحثه على الخير وعلى ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة فتراه يستجيب، فيقع في حبائل العدو اللدود في معصية زينها له، أو في ترك طاعة أو باب من أبواب الخير وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، فالشيطان العدو له من الإمكانيات والطاقات ما يؤدي به عمله بلا كلفة ولا مشقة، فما من طريق خير أو شر، وما من باب طاعة أو معصية إلا وهو قاعد عليها، مزيناً وملبساً ومشككاً ومكذباً وممنياً ومخوفاً ومثبطاً ومغروراً، كل ذلك عن طريق الوسوسة التي يرسلها، فتجد قبولاً واستقبالاً في بني آدم، كل ذلك يفعله رجاء حصول مقصوده، وهو حد الناس عن دين الله وعن الحق وعن الصراط المستقيم.

لذلك شُرع لنا الاستعاذة بالله من أفعاله وشروره، وأخبر المولى تبارك وتعالى أنه يعيذ ويعصم خاصته

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه».

(٣) متفق عليه.

من جميع شرور عدوه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، فمن حقق العبودية لله تعالى عصمه ربه ، ومن حفظ الله في حقه وأمره ونهيه حفظه الله تعالى من بين يديه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته؛ ولذلك أيضاً شرع لنا التعوذ بالله في كل حين، وشرع لنا تعويذ الأطفال صغاراً لأنهم في غفلة وجهل عن حقيقة أمر عدوهم، ولأنهم لا يحسنون مواجهة الأعداء، فوجب على الآباء تعويذهم لتضييق تسلط العدو عليهم ، وذلك من قبل نشأتهم، وعند إتيان الرجل أهله، ثم بعد ولادتهم وطيلة حياتهم وتعويدهم على ذلك، على التسمية عند الطعام وعند دخول البيت أو عند النوم وعند الاستيقاظ؛ كل ذلك لإضعاف قوة تأثيرهم وتسلطهم علينا وعلى أطفالنا من جميع همزه ونفخه ونفثه؛ لما في همزاتهم ووساوسهم من إغواء للقلوب والنفوس الإنسانية.

وإن أعظم سلاح لهذا العدو هو التزيين والتلبيس الذي يقذفه في القلوب عن طريق الوسوسة، وقد ذكر الله تعالى وسوسته وذكر محلها، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٥]، فالله تعالى جعل له نفوذاً ودخولاً إلى جوف العبد، والى صدره وقلبه الذي هو ملك الأعضاء جميعاً؛ لذلك فإن أصل كل معصية وقبيح ومنكر وبلاء إنما هو الوسوسة الشيطانية؛ لهذا أمرنا ربنا بالاستعاذة من شر الوسوسة لأنها أهم شروره، والحق أن جميع شروره لا تصل إلينا بغير الوسوسة، فهي سبيل وطريق جميع شرور الشياطين.

فهو يبيت في بيوت الناس، ويقعد على رؤوسهم عند النوم وربما في آذانهم، ويشاركهم في الأموال والأولاد ويسرق طعامهم، ويأتيهم حين خلوة الرجل بأهله ليجعل لنفسه حظاً في أولادهم، ويزين الذنوب، ويشكك في مسائل الإيمان والآخرة، ويكذبهم بأمور الجزاء، ويفضح أصحاب الذنوب، ويرغبهم في الدنيا وزينتها وحظوظها، ويلبس عليهم التوسط والاعتدال في أمور الدين ومسائل العلم والاعتقاد، ويثبطهم عن فعل الخيرات وإنفاق الأموال، ويخوفهم الفقر والحاجة ويأتيهم في جميع طرقهم وأماكنهم وأحوالهم، ومراصده مزروعة في جميع بني آدم ومنصوبة على جميع أبواب الخير، والحق أنه لا يمكن لأحد حصر أجناس شره فضلاً عن آحادها، وكذلك لا يمكن حصر وسائله ولكن أهمها:

(١) **التزيين، ومنه التلبيس**: وفرَّق بعض أهل العلم فقال: التزيين لأهل المعاصي؛ لأن المنكرات والقبائح هي التي تحتاج إلى التزيين لقبحها وسوئها، فيستعملها مع أهل الأهواء ومتبعي الشهوات، وأما التلبيس فلأهل الطاعات والإيمان، فيدخل عليهم وخاصة أهل الجهل فيشككهم في أمور دينهم ومعادهم وجزائهم، أو يلبس الحق بالباطل والسنة بالبدعة والغلو في الطاعات

(٢) **الوعود الكاذبة**: يعد أصحاب النفوس الضعيفة ويرغبهم في الدنيا وطول الأمل والتسويف ، ومنه الأماني فيغررهم بحال الدنيا، ويخوفهم من الفقر ليحملهم على كنز الأموال.

(٣) **الاستفزاز**: يدخل على أوليائه باستعمال وسائل كثيرة؛ ترغيباً وترهيباً، فيرغبهم في الشر والفساد، ويرهبهم من الطاعات وأعمال البر.

وأما شره فلا يمكن حصره كما تقدم، ولكن أعظم شروره تنحصر في:

(١) **شر الكفر والشرك**: وذلك الوقوع فيهما والاستمرار عليها حتى الموت.

(٢) **شر البدع والأهواء**: وهذه أحب إليه من المعاصي والفسوق لأن ضررها متعد، ولأنه لا يتاب منها غالباً لتغلغلها في القلوب وانطباع النفوس عليها، ولأنها بريد الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله.

(٣) **شر الكبائر و الموبقات**: يحبها بعد البدع لأنها تفتقر إلى التوبة منها والإقلاع عنها بعد الندم، ولأنها بريد للبدع والأهواء.

(٤) **شر الصغائر**: مع تزيينها وتحقير شأنها حتى تبلغ بصاحبها مبلغاً عظيماً من الجرأة على الله وعلى محارمه وحدوده؛ ولأن العبد يستسهل الصغائر لعلمه بمكفراتها، والحق أن العبد لا يزال يتهاون في الصغائر حتى تؤول به إلى الكبائر، قال عليه الصلاة والسلام : «**إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود ، حتى حملوا ما انضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**»[(١)].

وقال أيضاً : «**إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**... »[(٢)].

(٥) **شر الاشتغال بالمباحات : وبها تضيع الأعمار والأوقات فيما لا خير فيه ولا ثواب ولا نفع، هذا إن سلم من الوقوع في الذنوب والآثام، فالاشتغال بالمباحات والإكثار منها أعظم أبواب الفضول الذي هو من أبواب الشر كما تقدم.**

(٦) **شر الاشتغال بالمفضول عن الفاضل**: أي من الطاعات والأعمال المشروعة المندوبة وغيرها، كمن يحسن إلى الأجانب، أو يرفق بالحيوانات والدواب مع إهماله وتضييعه لمن يعول من الأقارب والأولاد والوالدين، أو كمن يجتهد في الدعوة وإصلاح الأجانب، ويسافر لهم ويشد لهم الرحال وهو في عماية تامة، وغفلة عظيمة عن أهله وذريته، فالشيطان يزين للعبد سبعين باباً من أبواب الخير إما ليصل به إلى باب من أبواب الشر المحض، أو ليفوت عليه ما هو أعظم خيراً من تلك الأبواب السبعين.

ولا شك أن الأصل في اتقاء جميع شروره هو توفيق الله تعالى أولاً، ثم تجديد الإخلاص لله عز وجل وتوحيده وعبادته، ثم تجديد المتابعة لرسول الله ﷺ في جميع الطاعات، ثم شدة الاعتناء والاهتمام بمراتب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٨٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٨٧).

الأعمال عند الله، ومعرفة أحبها إليه وأنفعها وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولخاصة المؤمنين وعامتهم، والحق أن هذا كله لا يتأتى إلا بالعلم الشرعي الصحيح وميراث النبوة الصادقة، وتحصيل ذلك والسعي فيه، ثم بالقيام به عملاً، ثم تبليغه والدعوة إليه والنصح فيه، مع الصبر الجميل على ذلك كله وفي ذلك كله .

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: « التلبيس إظهار الباطل في صورة الحق، والغرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحاً والرديء جيداً، وسببه وجود شبهة أوجبت ذلك وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم، وجهلهم وعلمهم. واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحصن سور، وللسور أبواب وفيه ثلمْ، وساكنه العقل، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن، وإلى جانبه ربض (المكان والمأوى الذي يلجأ إليه) فيه الهوى والشياطين، تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع، والحرب قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم، فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكل بحفظه، وجميع الثلم، وألَّا يفتر عن الحراسة لحظة؛ فإن العدو ما يفتر. قال رجل للحسن البصري: أينام إبليس؟ قال: «لو نام لوجدنا راحة»، وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان، وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صور كل ما يمر به، فأول ما يفعل الشيطان في الربض إكثار الدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة، و كمال الفكر يرد الدخان، وصقل الذكر يجلو المرآة، وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحارس فيخرج، وربما دخل فعاث وأفسد، وربما أقام لغفلة الحارس، وربما ركدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة، فيمر الشيطان ولا يدري به، وربما جرح الحارس لغفلته وأسر واستخدم وأقيم يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته ، وربما صار كالفقيه في الشر. قال بعض السلف: «رأيت الشيطان فقال لي: قد كنت ألقى الناس فأعلمهم، فصرت ألقاهم فأتعلم منهم». وربما هجم الشيطان على الذكي الفطن ومعه عروس الهوى قد جلاها، فيتشاغل الفطن بالنظر إليها فيستأسره، وأقوى القيد الذي يوثق به الأسرى الجهل، وأوسطه في القوي الهوى، وأضعفه الغفلة، وما دام درع الإيمان على المؤمن؛ فإن نبل العدو لا يقع في مقتل.

ثم روى بسنده إلى الحسن بن صالح قال: إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين باباً من الخير يريد به باباً من الشر ، وروي بسنده إلى الأعمش قال: حدثنا رجل كان يكلم الجن، قالوا: ليس علينا أشد ممن يتبع السنة، وأما أصحاب الأهواء نلعب بهم لعباً»[1].

(١) تلبيس إبليس (ص: ٥٠).

فهرس المواضيع

الموضوع	الصفحة
تعريف الخلق لغةً واصطلاحاً	٢
أقسام الأخلاق	٣
موضوع علم الأخلاق	٤
الغاية من علم الأخلاق	٥
الحس الأخلاقي	٦
مصادر علم الأخلاق	٨
أسباب نيل حسن الخلق	١٣
أولاَ – العقائد وعلاقتها بالجوانب الأخلاقية	١٦
ثانياً – العبادات وعلاقتها بالجوانب الأخلاقية	١٧
ثالثاً – المعاملات وعلاقتها بالجوانب الأخلاقية	٢٢
القواعد الأساسية والنظريات الأخلاقية	٢٤
القاعدة الأولى – الإلـــزام	٢٧
خاصية الإلزام وشروطه	٢٩
القاعدة الثانية – المسؤولية	٣١
خصائص المسؤولية الأخلاقية	٣٢
شروط المسؤولية الفردية	٣٤
القاعدة الثالثة – الجـــزاء	٣٦
أولاً – الجزاء الذاتي النفسي	٣٦
ثانياً – الجزاء التشريعي القانوني	٣٩
ثالثاً – الجزاء الإلهي	٤١
أقسام الجزاء الإلهي	٤٢
نماذج مضيئة من أرباب الأخلاق	٥٦

تزكية النفس ٦٠
أقسام القلوب..... ٦٣
شروط قبول الأعمال: ٦٤
أولاً – الإخلاص ٦٥
ثانياً – المتابعـــة ٦٧
علامات أهل البدع..... ٧٠
موقف أهل السنة من أهل البدع ٧٣
مرض القلب..... ٧٧
علامات مرض القلب..... ٧٨
أسباب نيل محبة الله ٨٠
علامات صحة القلب ٨٢
أسباب أمراض القلوب ٨٦
أولاً – فضول الكلام:..... ٨٨
ثانياً – فضول النظر: ٨٩
ثالثاً – فضول المخالطة: ٩٠
ذكر بعض أمراض القلوب ٩٣
أحوال النفس الإنسانية..... ٩٩
أولاً – النفس المطمئنة : ١٠٠
ثانياً – النفس الأمارة بالسوء:..... ١٠١
ثالثاً – النفس اللوامة: ١٠١
محاسبة النفس ١٠٣
الإنسان والشيطان ١٠٦
أعظم شرور الشيطان ١١١
فهرس المواضيع..... ١١٣